رواية

الكرخانة

كرم صابر

رواية

الكرخانة

كرم صابر

مؤسسة يسطرون للطباعة والنشر والتوزيع

رئيس مجلس الإدارة

عماد سالم

المدير العام

أحمد فؤاد الهادى

مدير الإنتاج

أحمد عبد الحليم

الطبعة الأولى

الكتاب : الكرخانة

المؤلف : كرم صابر

تصنيف الكتاب : رواية

لوحة الغلاف للفنان : مرتضى كاتوزيان

تصميم وإخراج : أحمد عبد الحليم

المقاس ١٤ × ٢٠

رقم الإيداع : ؟؟؟؟؟ / ٢٠١٨

الترقيم الدولى : ? - ??? - 776 - 977 - 978

العنوان : المكتبة والمطبعة : ٢ ش صفوت محطة المطبعة شارع الملك فيصل الجيزة

التليفون : ٠١٢٢٩٣٠٠٠٢٩ - ٠١١٥٧٧٦٠٠٥٢

Email : yastoron@gmail.com

موقعنا على الفيس بوك : مؤسسة يسطرون لطباعة وتوزيع الكتب

إلى روح الفنان : عز الفيومى

العالم الأول

حيران

(١)

فى لحظة غير متوقعة تيقظ «حيران» رغم جرحه المفتوح، ونادى بعلو صوته فلم يرد أحد، تحسس الظلام وتقلب بجسده الممدود، ليجد نفسه وسط فضاء واسع، وأقدامه تغوط في بركة مملوءة بالزجاج المدشوش.

توقف عن الحركة وشعر بأن قدميه شُلت، وحاول سماع صوت الموج، لكنه اكتشف فقدانه النظر.

دعبس بيده ولامس سنون الدبش والألواح، ودون إرادته دخل فى غفلة، وشعر بنفسه يطير والريح تلفح أذنيه .

ترنح بيديه المفرودتين فوق سجادة الهواء، ليحط بعد ساعات طويلة فى مكان غريب.

كان متعبًا لدرجة الموت، فقرفص ليستريح غير عابئ بدمه النازف، وشاهد روحه ترمح وسط أشجار باسقة، واندهش لعودة نظره وسماع نعير الجواميس، فنط كالحاوى، وسار على يديه ليجد نفسه على شاطئ ترعة مسحوبة داخل التربة.

ألقى بنفسه وسط مياهها، وتحمم كدكر الوز، وسارت الأمواج بجسده إلى بحر شاسع، كلما توغل فى أعماقه رأى أسماكًا برءوس حوريات تتلألئ، وضفادع على شكل طيور تعاقر أفراس النهر، فتجرأ وانتشى ولعب مع عجايب البحار غير عابئ بأسنانهم المفترسة.

بعد يومين من السباحة، شاهد عرايس البحور يتراقصن كأغصان الزهور، فطبش وسطهن بيديه، وملأ أعماقه برحيق سعادتهن، وأثناء شربه من فيض البراءة رأى جنية على الشاطئ بجسم كلبة.

خلبت عيونها الصافية عقله، وباغتته بصوتها الناعم: يا حيران يا حيران، فنظر لهالتها مأخوذا من لون ضفائرها وخرج من المياه لترفعه فوقها، وترفرف بجناحيها فوق سموات مترامية عابرة محيطات وغابات وصحارى، وحطت بعد طول رحلتها وسط مملكتها.

(٢)

وضعته الجنية فوق عرشها، وطالبت كائناتها بالتسبيح بحمده بصفته حارسها الامين، ولم يفهم حيران سرَّ كلامها، وتأمل زيه المرصع بالزمرد منشرحًا من وجوه كائناتها المرحبة بوجوده.

قدموا لتاجه فروض الطاعة، وقبلوا يديه وملَّوا على أصابع قدميه، فتحرك الكرسي الذى يجلس عليه ليلبى رغباته، وتحولت الجدران أمامه إلى شاشات مملوءة ببحور العنب وحدائق الفستق.

لامس مقبض الكرسي مدهوشًا من أنهار الصفاء المملوءة بمراكب محملة ببنات يافعات يتنشقن عبير الحياة، ويخففن حملوهن بفرد شعورهن وسط براح الشواطئ.

شعر بالرضى والخفة فنشر الكرسي حوله السلام، وتحولت الكائنات أمام القصر إلى طيور أليفة مشغولة بالغناء وهى تزرع الورد، وتستحم فى آبار الرحمة، وتقبل وجوه بعضهن كأنهن فى يوم عيد.

أنتبه على أصوات الأمراء الذين فنَّدوا تقاريرهم المملوءة بالصراعات، وشاهد ساحات الجليد على أكفافهم مملوءةً بأسود وأفيال يركبها ضباع قساة القلوب، ويقصفون رقاب بعضهم بالسيوف، ويلتهمون مشاعر الميتين فى غلٍّ.

نشروا أفكارهم فى ألواح مفرودة بالهواء ليتزودوا بحكمته، وانبروا يكشفون أسرار الجنية التى يمكنها العبور بين عوالم الزمان كفراشة، وسردوا قصة صراعها مع الزمار الذى يرغب فى سرقة مجدها وخلود روحها.

قام مدهوشًا من جوارهم، وتجول فى باحة القصر المملوء بحدائق الرمان وتزحلق على مداخله ومخارجه المبطنة بالحرير الأخضر، وعاد طائرًا وسط جثامينهم الضخمة وبصق على تيجانهم، وطرطر على كرسى العرش، وتركهم ودخل صومعته لينام.

(٣)

كان الركوب فوق ظهر الجنية هي متعته الأسمى، فبمجرد التفكير فى فرجها المفتوح يجدها باركة على الأرض بملابسها الحريرية الشفافة تتشدق كالحمير، وتغلق فرجها وتفتحه.

ينزل من فوق كرسيه، ويلقى بملابسه المذهبة تحت أظافرها المطلاة بدم أبيض، ويدق قضيبه داخلها لينفجر صوتها ناشرًا رائحة العشق، فيلقى رعاياه معاولهم ويدقون بعضهم في جنون، ويتنشقون رحيق خلودها.

بمجرد انتهائها من مص توهجه يعود السلام لحدائقها، وتعاود حورياتها حياتهن مستمتعات بعطر رغباتها الذى لولاه لم يكن أحد يدرى مصير هذه الأكوان.

كل صباح يدخل الأمراء القصر ويمدونه بتطورات المعارك، ويطالبونه بإصدار مراسيمه، فيتشاور مع الجنية ثم يعدل ويوقع نهاية اليوم على قواعد حكم المملكة.

آخر الليل يتركهم ليدخل صومعته وسط الأثير المخفى عن العيون ليعاقرها كالكلبة أو تركبه كاللوطى، يتعشان وينطلقان على أصوات موسيقى مختلطة من مواء القطط وزقزقة الطيور.

وأثناء قذفه بمهبلها يسألها عن سبب غدر أمرائها وشربهم كل هذا الدم المسفوك، فتجيبه مبتسمة بأن دورهم المفروض عليهم هو العيش وسط المهالك كسفاحين.

تمسح دموعه وتأخذه بحضنها، وتطير بروحه وتلقيها فى دنيا الحروب، فيتبس ويغضب فتغلق عينيه وترفعه فوقها، وتخترق الجدران، وتجوب البحار والهضاب، وتعبر من بوابات مكتوب عليها ماضى الزمان وتلف فيها كفراشة، ثم تخرج منكدوة وترفرف وسط عوالم مرسوم فوقها مستقبل الأكوان، وحين تمل من صراع الكائنات تعود بجسده إلى القصر وتقبله لينام.

وحين يكرر أسئلته تصرخ في وجهه ليصمت، فيرتعد وتنزف عيونه ويعاوده ألم جروحه، ويهرب خائفًا من لمعان شعرها إلى باحة القصر ويجلس على كرسي عرشها يتأمل دوران النجوم حول حدائقها ويندهش من أجساد رعاياه الفتية والمشغولة بالقلع والزرع والحالمة برضائه.

(٤)

لم يزعج حيران في قصر الجنية إلا ألحان طرطور الزمار، الذى قام حراسها بمنعه من دخول حديقتها، إلا أنه كان يقف تحت شباكها ويعزف ألحانا حزينة.

ألحانًا تضج من سماعها الحيات، فتخرج من جحورها وتتعارك، وتمتص زبد المدافن وتسير كالموتى فى أسراب، وتحاصر الأسوار وتعوى بلسانها الأبرص، وتلقى بسمومها على الجدران، ولولا قيام حراسها بمواجهته لسقط كرسيها من عليائه، واختل نظامها وانهارت المملكة.

ورغم محاولاتهم قتله عدة مرات الأ إنه كان يهرب من مكايدهم، ويدور فى الأكوان وينشر إشاعات حول خطف حيران فى ليلة غامضة محبوبته، وسرقته كرسيها الذى كان يخبئه بالزريبة التى يربى فيها أغنامه.

وبفعل جبروته وقوة تأثيره، صدَّقته معظم الكائنات وتعاطفوا مع حزنه، وتمنوا موت حيران سارق الحب، لينعم الزمار بحضن

خليلته التى وجدت فى شخصٍ أبرص وعاجز ما يؤهله لنيل قلبها والجلوس مكانه على عرشها.

لكن الحقيقة التى يعرفها القلة أنها كانت ترغب فى تأديب الزمار لشعورها أثناء معاشرته بتفكيره فى وصيفتها القطة، فأغوت حيران وطيبت جرحه، واستولت على أعماقه، وأيقظت روحه، ووضعته على كرسى عرشها بدلا من الساحر المفتون بنهود حوريتها.

ورغم لعنتها فإن الزمار لم يفارق سور حدائقها، فخلال ساعات وليالٍ طويلة يسمع الحراس عزفه، فيهتاجون ويخرجون بدروعهم الخارقة يبحثون عن جسده الذى يختفى من أمامهم رغم استمرار نايه فى العزف.

يتلاشى وسط الظلام، ويغوى السحالى والأبراص، ويستخدم أرواحهم كأوتار تنخر فى جدران المملكة، ويطير كالجن ويسرق جسد القطة اللعوب، ويعلقها من رقبتها على شجرة التفاح كى تراها عين جنيته، ويصور عذابها ومواءها، ويرسلهم لأعماقها كى تشفق على فؤاده.

(٥)

وفى ليلة عادية تسحب الزمار فى عين ذبابة ودخل القصر ونام بمخدع حيران، وعوَّذ بتعويذة البهتان، فانسحبت الجنية من تحته ونظرت إليه بقرفٍ.

تمكنت موسيقى الزمار من اقتحام مشاعرها وإزاحة غضبها فسارت مدهوشة حتى الشباك المفتوح على نعيم مملكتها وعبرت منه إلى الحديقة، وسمعت تغريد العصافير وحط اليمام على ظهرها، وطارت مفتونة بنضارتها وتحممت بنهر الخمر وخرجت غارقة فى شبقها تبحث عن ساحر القلوب.

شعرت بلسانه المتشى يلحس تحت ذيلها، فذابت من فرط النشوة ودخلت حجرتها، ووقفت أمام المرآة تتجهز للعشق، ونظرت ناحية سريرها واندهشت من وجود حيران على مرتبتها، فصفعته وبصقت فى وجهه، وابتعدت عن سحنته البلهاء مأخوذة بألحان الزمار.

جرى حيران ناحيتها كالكلب، لكنها زجرت ونبشت وجهه، ووضعت أصابعها فى عينيه فضاع نظره.

صرخ وعوى فأخرجت ساطورًا من جعبتها، وقطعت لسانه وأقدامه ويديه، وأمسكت بأحد الأسياخ المحمية ووضعته بأذنه فعاد إلى صَنَجِه.

لحظتها ظهر الزمار بنايه، وارتفعت موسيقاه وجلس على عرشها كملك حقيقى، واضعًا إحدى قدميه فوق الأخرى وسلم ليديها كل أسحاره.

وأثناء هيامها فى بحور اللذة وضع الزمار تاجها فوق رأسه فانكشفت له عوالم الخيال، ورأى ماضى الزمان ومستقبل الأكوان.

وبعد انتهائه من عشق الملكة أصدر فرمانًا لأمرائه بإعادة حيران عبر ترعة المياه الفضية إلى أرض الوجوه السعيدة، وهناك

على جانبى الترعة رفعوا جسده الدامى وألقوه بين الموج العاتى.

وكان الزمار رءوفًا؛ إذ رغم قدرته على حرمانه من الحياة، لكنه أعادها إليه ليسمع ويرى ويمشى إلى قدره المكتوب فوق جبينه.

ونادى الزمار فى الأمراء والرعايا ليسمعوا صوته، ويلهمهم بقوته التى سرت فى أعماقهم كالكهرباء مخترقًا خيالهم وكاشفًا بواطنهم ومزيلًا الحجاب الفاصل بين واقعهم وأحلامهم، فانحنوا تحت أقدامه وسبحوا بإسمه.

وخلال احتفالهم بصاحب الولاية على العالمين، كان حيران يجدف ويلاطم الموج شاعرا بعجزه، ورغم ذلك قاوم توحش الحيتان وعبر محيطات وجبالا وغابات وارتمى داخل بحر غويط ليس له قرار.

حين خارت قواه صعد إلى الشاطئ ونام محسورًا من قسوة الخلائق، وشاهد نفسه بأحلامه يترجل فى مدافن بلده مكتوب على مدخلها الكرخانة، لم يكن فى شوارعها إلا المجاذيب الذين يبحثون وسط أكوام القمامة عن أى لقمة.

سمع أناتٍ غريبة تقترب من طيفه فطار مبتعدًا، ووجد آلاف الناس يحملون توابيت مملوءة بالجثث، وتسير فى صمت، وسمع أحد المارة يقول إنها جثث طائفة الدبَّاغين الذين رفضوا العمل دون تسليمهم وجبة طعام، فأمر المفتى صاحب الديار بدهسهم بقلب المدبغة فى وضح النهار.

انتبه حيران على صراخ وعويل وهرج ومرج حاملى التوابيت الذين أطلق عليهم العسس الرصاص، وجرت سياراتهم وراء

أقدامهم لتدهسهم فتركوا حمولتهم وسط أكوام القمامة وفروا هاربين، فقام العسس بإلقاء الجاز على توابيتهم وأشعلوا فيها النيران ليحرقوا عظامهم.

وقف حاملو التوابيت بالقرب من معبد مسحور يدعو من أعلى مئذنته رجلٌ أشيب بالخلود للمفتي ملك البلاد، ويعلن ببرود أسماء وأوصاف الدبَّاغين المقتولين.

اقترب من جمعهم نساء عرايا يعددن فقد أبنائهن وآبائهن، ويتشممن دخان اللحوم البشرية بأسى عجيب.

وفي لمح البصر أحاطت سيارات العسس المملوءة بالشمحطجية الجمع، وضربوا حولهم الأسلاك والأسوار، ودخلوا بسيارات ضخمة مرفوعة على جنازير لتدق جدران المعبد، وتدهس لحومهم وتقرقش عظامهم.

وتفاجأ حيران بظله يبكي من لون عيون الدبَّاغين الحالمة، وانطلق مدفوعًا بقوة غريبة يحاول سحب جثه إحدى الدبَّاغات من تحت العجلات، فصرخ سائق المجنزرة مرعوبًا من الخوف: أشباح أشباح.

(٦)

عندما تيقظ حيران وجد نفسه ملقى كالجيفة بجوار الشاطئ، فقام مفروداً متناسياً جراحه وترجل بجسده وسط

الأشــجار المورقــة مدهوشــاً مــن الوجــوه الســعيدة التــى تحــرث الأرض وتســوق الأبقــار.

وقبالــة قــصر كبــير يطــل عــلى باحــة مزروعــة بالفــل والياســمين، توقــف ليعايــن عيــون فتــاة آيــة فى الجــمال ومحلولــة الشــعر وتغنــى للشــمس.

أنهــت الفتــاة أغنيتهــا، وخلعــت ملابســها، وأضحــت عاريــة، ليعاقرهــا رجــل عجــوز بنشــوة جعلتــه يتصلــب مكانــه مفتونــاً مــن صــوت آهاتهــا.

حــين انتهــى العجــوز مــن شــبقه، وخــرج إلى الحديقــة يتنســم الهــواء، تفاجــأ بوجهــه المتشــى وجســده المدقــوق فى الأرض كنخلــة، فنــادى عليــه ليدخــل ويضايفــه .

تعجــب الرجــل مــن طولــه الفــارع، وعضلاتــه المفتولــه التــى اختبرهــا عــدة مــرات، لدرجــة أنــه طلــب منــه رفــع أحــد الأبقــار فــوق ظهــره، فتمكــن مــن رفعهــا بيــد واحــدة، وحلــب بيــده الأخرى ضرعهــا، لتــشرب الفتــاة حليًــا صابحًــا غارقًــا فى مشــاعره البريئــة.

توســله العجــوز ليســاعده في رى مزرعتــه، فوافــق عــلى شرط مقاســمته فتاتــه التــى علــم أنهــا ابنتــه، ويــا للغرابــة فــإن الرجــل لم يــتردد فى قبــول الــشرط، لأنــه كان يأمــل في حملهــا بعــد يأســه مــن تلقيحهــا.

وبعــد مــرور تســعة أشــهر أنجبــت الفتــاة طفــلاً عجيًــا لأنــه بمجــرد نزولــه مــن فرجهــا ســار عــلى قدميــه، ومســح الــدم عــن وركيهــا، وجلــس أمــام العجــوز كفــارس ينتظــر الإشــارة.

هاجـت الوجـوه السـعيدة عـلي أثـر سـماع خـبر الـولادة، وانفجـرت روح العشـق بأرجـاء المزرعـة، وعاقـروا بعضـهـم بحـبٍّ فـاق الجنـون، وامتطـى الأبنـاء أمهاتهـم، وعـاشرت البنـات آباءهـن وإخوتهـن.

إذ كلـما رأى رجـل امـرأة وقـف أمـام غبطـة روحهـا مفتونـاً بهياجهـا، وأثنـاء ذوبانهـا في مـاء عيونـه ياغتهـا ونـط عليهـا ويعاشرهـا سـاعات، وكلـما رأت فتـاة رجـلاً داعبتـه، وأزاحـت الغبـار عـن جوهرتـه ليـنفجـر مـن الشـبق وينـام مـتـململاً تحتهـا وهـي تلحـس جسـده ورأسـه، وتمـلأه برحيـق ميـة المحيـاة.

وأمـام غـرق الوجـوه السـعيدة فى العشـق اضطـر حـيران لإدارة ملايـين الأفدنـة، وبسـبب ضخامـة مهمتـه اضطـر لتقسـيمهم حسـب معايـير الحاجـة والعطـاء والعشـق، وحـدد أدوارهـم ووظائفهـم ونظـم دورانهـم فى دائـرة لا تنتـج سـوى النـور والحـب.

وأصـدر نصائحـه فى ألـواح صغـيرة كـي يتمكـن وكلاؤه مـن تنفيذهـا، ورغـم طيبتـه المفرطـة وحنـان قلبـه، لكـن أتباعـه اتسـمت قلوبهـم بالقسـوة، وانتهـزوا فرصـة انشـغاله بعيـون محبوبتـه الشـبيهة بالجنيـة، وأعدمـوا كل شـخص رفـض العطـاء بزعـم غرقـه فى نهـر اللـذة، وحابـوًا المطيعـين الذيـن يـرقـون الحاجـة ويخفونهـا فى مقابـر الموتـى.

وحرمـوا المعـاشرة وعاقبـوا المخالـف بـبـتر أعضائـه، وتغولـوا بقراراتهـم عـلى مشـاعر الوجـوه السـعيدة حتـي تحولـوا إلي دمـى لاتعـرف سـوى الخـرس والعمـل.

وفى ليلة هاجت الوجوه السعيدة بعد جفاف مشاعرهم، وقاموا بدخول حواصل الغلال، وتمكنوا من معرفة أسرار العجز، وكونوا وفداً بقيادة فارس جلبوه من قبيلة المقاطيع يدعى هوسة الجربان، وذهبوا إلى حيران فى متجعه، وطالبوه باقتسام العشق والخير الوفير.

اندهش من جرأتهم، وطالبهم بالصبر حتى مرور العاصفة، فتذمروا وهربوا من الحقول، وتمكنوا من تكوين مجموعات كثيرة فى أنحاء المزرعة لتهاجم مشاتل الخصوبة ومدافن الأحياء.

وذاع صيتهم ورسموا على كفوفهم وجباههم علامات سوداء، ووضعوا على رءوسهم طواقى حمراء ليميزوا أنفسهم عن عبيد المزرعة، واختاروا هوسة قائداً لهم، واشتهر الرجل بقسوته وملابسه المهلهلة، وتفاخر أتباعه لسماحه بحرية المعاشرة دون حد.

ولم يتمكن حيران رغم قوة تابعيه من مواجهتهم، فاضطر يوم هجومهم على قصر العجوز إلى الهرب مع طفله وحواريه، لكن المقاطيع قاموا بأسر امرأته، وشربوا دماء أبيها، وطاردوه حتى مدخل الترعة المسحورة التى تفصلهم عن أرض الجفاف.

توقف حيران على شاطئها برهة ثم ألقى بنفسه وسط الموج حاملاً ابنه فى سله من الخوص وسبح بمهارة فاقت التصور، وحين وجد أتباعه خائفين من الغرق شق الترعة بعصاه لتحول الى طريق خالي من الصخر والدقشوم، ليعبروا هاربين إلى الجبل الخالي من مظاهر الحياة.

(٧)

سار مع أتباعه عدة أيام حتى وصلوا إلى منخفض بعيد وسط صحراء قاحلة، وحطوا برحالهم داخل مغارة كانت مخزنًا للغلال والمؤن لجيش مهزوم فى موقعة منسية.

عاشوا شهورًا مهنئين فى الرغد وأصابهم داء الكسل، ورفضوا سماع نصائحه بمواصلة الرحيل، واتهموه بالكبر لرفضه مقاسمة المقاطيع الرزق، ووصفوا أنفسهم بالخونة لأنهم حرموا أنفسهم من الأمان الذى كانوا يتنعمون فيه بالمزرعة.

كل ليلة يتركهم بعد معايرته، ويخرج من باب المغارة، ويرتمى كالكلب وسط الصحراء غارقا فى ألمه، ويشاهد نفسه بأحلامه داخل الكرخانة التى بات يعرف ملامح أهلها، لكنه لا يفهم سبب قذارة شوارعهم، ويتفاجأ بنفسه داخل مكان مهيب يسمونه الكرخانيين قصر المفتى.

تسحب ظله فى الراديب، ودخل حجرة مخفية بباطن الأرض، وشاهد رجلاً يدعى قاضي القضاة وآخر يدعى رئيس العس يدخنان النرجيلة باستمتاع، وأمامهم شاب ضعيف البنية مقيد فى الحبال.

وضعا أقدامهما في وجه الفتى، وسألوه بغنج عن أفكار الرسومات التى ملأ بها بيوت الكرخانة، أين يقبع مصدرها وكيف يستقى ألوانه وينقلها علي الملأ، ومن يساعده فى نقش وجوه الرذيلة على الجدران.

حاول الشاب إفهامهم أن ريشته مسالمة وأنه لا يشكل خطراً على سلطانهم، وأن هدفه هو إيقاظ الرحمة التى ماتت داخل قلوب الكرخانيين.

فهقهوا عن آخرهم، وقام رئيس العسس بغرزه في جنبه بسكين صدئ، وسأله عن اسم مجموعته، فرد قاضي القضاة ضاحكاً: اسمهم الخولات يا باشا، فاستكمل المفتى: والله لو حقيقى الكلام ده يبقى لازم نكافئهم مش نقتلهم.

رفض الشاب ذكر أسماء أصدقائه أو جيرانه الذين شاركوه في رسم مذابح الكرخانة، فقام المفتي وأمسك السكين الصدئ وقطع رقبتهوصفق رئيس العسس وقاضي القضاة لرئيسهم ذي القلب الشجاع، والذى لولا مبادرته الفتية ما عرفت مدينتهم السلام.

شعر حيران بالحسرة لأنه لم يتدخل لإنقاذ الفتى بسبب إنهاكه وألم جروحه وصراخ حواريه المتواصل ليعود من أحلامه ويتيقظ ليتناول فطوره.

(٨)

فتح حيران عينيه بصعوبة، وتناول طعام حواريه البايت، وجلس وسطهم غير مدرك حواراتهم، وأثناء صراعهم حول فحولة أحد الحمير المخصية، جاءته الجنية مزهوه بنضارتها، وطالبته بالرحيل من المغارة قبل وصول مقاطيع الجربان إلى مخبئه.

تيقظ مفزوعاً وحكى لهم رؤيته، فتندروا عليه وقالوا: كفانا رحيل يا حيران، لكن امرأة عاجزة صدقته، واضطر أمام تكذيبهم إلى سحب العاجزة ومغادرة المغارة.

ووسط الجبال المترامية سار أياماً متواصلة دون نوم، وأظهرت المرأة قوة وحكمة لم يتخيلها، اذ كلما حل عليه التعب تحمله مع ابنه فوق ظهرها، وتواصل السير رغم عماها وسط أغوار الجبال الوعرة.

وعندما تشعر بقضيبه كالمسمار يلامس فتحه مؤخرتها الطرية تنزله على الأرض، وتضع ابنه فى سلته الخوص، وتخلع لباسها الملون، وترقص فوقه كغزالة، وتركبه ليمتلأ بالطاقة ويعاود السير والركض كالحصان، حتى وصلوا إلى واحة كبيرة مملوءة بالجمال والماعز.

استقبلهم شيخها المتجهم بالترحاب والحذر، وشرح له حيران قصته مع قومه الذين كذبوا رؤيته، وأثناء حكايته دخل إحد فرسانه الخيمة، وحكى وقائع مذبحة وقعت فى أحدى المغارات قام بها ابن قبيلتهم الجربان ضد مطاريد مزرعة الوجوه السعيدة.

لحظتها أمر شيخ القبيلة المفتون بعقاله أتباعه، تجهيز خيمة تليق بضيفه وملئها بالطعام والشراب، واستأذنه كنبيٍّ صدقت نبوءته لينعم بالراحة مع محبوبته.

خلال هذه الليالى وأثناء ركوبه للعاجزة التى ارتدت برقعًا أسود كانت الجنية تأتى إليه كطيف ونسيم، وتلقنه حكمتها لتعليم مقاطيع القبيلة متعة الخيال وحب الحياة.

وحين خرج بعد ليالٍ طويلة، وجلس وسطهم وألقى وصاياه، أصابهم الذهول، وجروا حوله يتبارزون بسيوفهم، ويقطعون أوصال بعضهم، وأمام صبره على توحشهم، ونظرته الكاشفة لدواخل أعماقهم، اضطروا لتصديق نبوءته مندهشين من قدرته على إزاحة القسوة من قلوبهم المتحجرة.

(٩)

مرت شهور طوال وحيران ينعم بالرغد، تركبه العاجزة الفتية كل ليلة لتأتي الجنية بتعاليمها الجديدة، أو تجيب عن أسئلته التي ينقلها للمقاطيع كأنه رسول محبة بين عالم القبيلة، وعالمها المليء بحور العنب.

وفي يوم غريب قابل عراف القبيلة العائد من رحلته الطويلة، والمقيم في كوخ بدوية مخصية بجوار حجر أخضر اعتبره أهل القبيلة مكانًا مبروكًا.

استقبله العراف مزهواً بعمته الخضراء، واتفق مع أحد أتباعه لكشف الاعيبه، وبمجرد ترجل حيران داخل خيمته استوقفه وبرق داخل عينيه وأدرك مشاعره المسالمة، وسحبه إلى ساحة الفرسان، وطلب منه إظهار قدراته.

سار حيران وسط ساحة الموت المملوءة ببقايا هياكل وعظام شاعرًا بالعجز، ودون مقدمات ركب العاجزة، وبحث عن الجنية لتمده بالمعجزات وتكشف حجاب المستقبل، لكنها كانت

مشـغولة بقضيـب الزمـار الـذى حولـه إلى نهـر لتنعـم بالعشـق وسـط مياهـه الدافئـة.

حـاول إيقاظهـا مـن النشـوة التـي أغرقتهـا بنهـر الزمـار وجعلتهـا غائبـة عـن الوعـي، لكنهـا كانـت منتشـية عـن آخرهـا، ولا يمكـن لأى كائـن إخراجهـا مـن هيامهـا.

عنـد ذلـك ألقـى العـراف عصـاه لتتحـول إلى ثعبـان، لـفَّ عـلى فـرج العاجـزة وقضيـب حـيران، فصرخـت المـرأة مـن الألم وطلبـت الشـفاعة، فنظـر العـراف لثعبانـه فتحـول إلى شـال أحمـر مطـرز، ولفـه حـول مؤخرتهـا ونهودهـا بلطـف، ووضـع يديـه عـلى عينيهـا فأبـصرت، وحـين رأت وجهـه اللامـع أنكـرت حـيران وجـرت إلى حضنـه عاريـه تتمنـى العيـش كعبـدة فى محرابـة.

لحظتهـا أمـر شـيخ القبيلـة بصوتـه الأجـش بالعفـو عـن المـرأة والطفـل، وصلـب حـيران عـلى مدخـل القبيلـة ليكـون عـبرة لـكل مجـذوب كاذب.

جلـس حـيران متشـياً وعـاوده وجـع جنبـه، وتـأوه ماسـحًا دمـه الحـي ونـام محـورًا، وشـاهد نفسـه ملقـى بمـكان موحـش مكتـوب عـلى مدخلـه بـير الكرخانـة وسـمع صـوت أحـد البـشر بداخلـه يسـتنجد بالمـارة، نظـر طيـف حـيران إلى الرجـل المقيـد بالحبـال والشـمحطجية الذيـن يجلدونـه، ويضربونه بالشـوم على رأسـه برعـب.

وسـمعهم يقولـون بعهرللرجـل: قـول يـاض أنـا مـرة، فـيرد باكيـاً: أنـا مـرة، فيقهقهـون ويقولـون: مـش سـامعين يـا شرموطـة، عيـد كـمان، عيـد وزيـد، وقـول أنـا سـونة العاهـرة المخرومـة الـلى

عمرى ما هلحن أو ألسن بسيرة المفتى أو قاضى القضاة.

فيردد الرجل وراءهم ما يطلبونه، فيعاودون السخرية ويطلبون منه دندنة ألحانه، فتخرج من فمه نغمات حزينة مؤلمة تكاد تفلق الحجر، لكن الشمحطجية لا يحسون فيقومون برجله، ويقطعون لسانه وأذنيه ويديه، ويتركونه ويصعدون على الحبال من قاع البير ضاحكين، والخناجر تتدلى من وسطهم.

وحين اطمأنوا لخروجهم سالمين ألقوا بالحبال فوق رأسه وطرطروا عليه، وطلبوا من رجل مهلل يدعى سيكة أن يقترب بعربة مكتوب عليها مخزن الكسح ويملأ البير بالخراء.

هلل سيكة وأشعل سيجارة مملوءة بالحشيش، وقال بعزة نفس: أنتم تؤمروا يا باشوات، واقترب بظهر العربة من فتحة البير ورفع المنفلة ليغرق الرجل فى الخراء ويخرس صوته للأبد.

حاول حيران تذكر وجه الرجل المدفون فى الوسخ، لكن فرسان القبيلة المرتدين ملابس الحرب، والشاهرين سيوفهم على الدوام أيقظوه لتنفيذ عقوبة الشنق عقاباً على هرطقته.

(١٠)

رفع الفرسان جثته فوق الصليب، وتجمع مقاطيع القبيلة مرتدين ثيابهم المهلهلة سعداء بنجاح عرافهم الأمين فى الانتصار على المجذوب.

نظـر ابنـه إلى دموعـه محزونـاً، وجـرى وسـط المقاطيـع المتفاخريـن بآثـار الحـروب عـلى أجسـادهم، وصعـد فـوق طبليـة الإعـدام ليفـك قيـوده، فمنعـه الفرسـان، وأدخلـوه خيمـة العـراف الـذى نظـر فى هلـع لالتـماع عينيـه وانبثاقهـا عـلى عـوالم الـبراءة، وأخـذه بحضنـه ليسـيطر عـلى قدراتـه.

لكـن الطفـل ذا الوجـه السـعيد تململ وخدعـه، وأخـذ ترياقـه مـن صندوقـه، ولحسـه بلسـانه فـبرز لـه قرنـان صغـيران برأسـه وشـعر باختفائـه عـن العيـون، فجـرى سريعـا نحـو والـده وسـقاه مـن الترياق، ووضـع باقيـه فى أذنـه، وعـاد إلى الخيمـة متمنيـاً نجاتـه.

شـعر حـيران بـزوال مظاهـر الألم بداخلـه، وجـرت فى عروقـه مشـاعر الطيـور الكاسـحة، ولحظتهـا ظهـر جـزار القبيلـة عـلى خشـبة الإعـدام، وعـوى كالذئـب ورفـع حـيران بيـد واحـدة فى الهـواء، ودق جسـده بجـذع الصليـب، لكـن روحـه كانـت تطـير ناحيـة قـصر الجنيـة لإيقاظهـا مـن نشـوتها.

وعندمـا هـاج مقاطيـع القبيلـة مدهوشـين مـن عـدم شـعوره بالمعانـاة صحـت الجنيـة وطبشـت فى نهـر النشـوة، وأيقظـت سـاحرها مـن نومـه لينجيـه، لكـن الزمـار لم يلـبِّ طلبهـا، ليـس اعتراضـا عـلى مشـيئتها أو عـدم رغبـة فى الانصيـاع لأوامرهـا، ولكـن لأن لوحـة المصـير التـي سرق مفتاحهـا مـن قلـب الجنيـة أظهـرت عـلى جبـين حـيران مصـيراً آخـر.

وفى غمضـة عـين رأت الجمـوع المبتهجـة بالنـصر مشـهدًا مغايـرًا لتوقعهـم، فهاهـى النـار التـى أشـعلوها ليحرقـوا جسـد حـيران فى

أحشائها تنطفئ بفعل المطر، وهاهو الصليب المعلق على ظهره يتحول إلى شجرة وارفة ينزل من عليها فاككاً قيوده، ويترجل بينهم كطفل صغير له فرج وقضيب وأربع أقدام وأربع أذرع.

هاهو يسير أمامهم كملك واثق من قدراته وممسكاً بزمام الأمور، ويدفع الجزار ذا القلب الميت بشعاع عينه ليخرى على نفسه، ويمر على خيمة العراف التى أعادت له العاجزة رجولته، ليتوقفا عن المضاجعة وينحنيا أمام وجهه الغامض ليمر بسلام، ويخرج من واحة القبيلة التى لا تعرف سوى الغدر وقطع الطرق.

وهاهى معزة وكلب وجمل يخرجون من خيمة البدوية المخصية ويسيرون وراءه، وعند تلك اللحظة انتفضت البدوية وفكت عقال رأسها، وقبضت على قضيب حيران فانتشى، وعاقرها لتصرخ من قوته وصلابته، وتعلن بغنج لتعايرهم بولادة أنوثتها على يد مجذوب من مزرعة الوجوة السعيدة.

أنتهز ابن حيران ذهول المقاطيع المنبهرين من عوده النضاره لفرج البدوية الجاف وتسحب من وسطهم، وجرى ناحية حيران، فزجره بقسوة، وحمله بإحدي أذرعه وألقاه تحت أقدام الفرسان، واستكمل سيره نحو المجهول الذى لا يعرفه سواه.

وعند منخفض مستو وسط الرمال توقفت أقدامه، واهتزت الهضاب، وحدث زلزال رهيب أسفر عن تساقط صخور ضخمة فوق بعضها لتشيد كوخًا مزروعًا أمامه شجرة سنط معمرة، وموضوع أمام بابه مقعد ضخم أشبه بكراسى العروش.

طلع حيران السلالم المحيطة بالكوخ، وجلس على كرسيه، ونام فى الضليلة ليريح جسده المنهوك، وشاهد ظله يجرى بجوار شاطئ نهر يقسم الكرخانة التى تأتيه دائماً بأحلامه إلى نصفين.

شعر بالرعب من دموع بشر يدعون أنفسهم بالعربجية، ويرتمون على الأرض بملابسهم المهللة ويصرخون بشكل متواصل فى وجه الشمحطجية لعدم قدرتهم على دفع الإتاوة التى يفرضها المفتى لأنهم يلحسون الخراء، ولا يملكون شراء البرسيم لحميرهم.

وبدون مقدمات دخل الشمحطجية العربخانة كالنور، وأحاطوا الحمير بسواطريهم وسناجهم، وفى لحظة واحدة رفعوا أسلحتهم البيضاء، وقطعوا دون رحمة لحوم الحمير وأجساد العربجية الذين اختفوا تحت أكوام التبن وقش الرز.

لكن الشمحطجية الذين لا يحبون نغزوهم بكواريك مدببة، وجروهم من ملابسهم الغارقة فى الدماء، وربطوهم بسلاسل من رقابهم مع حميرهم العرجانة، وعلقوا سلاسلهم فى سياراتهم المتهالكة.

وهناك بمحاذاة شاطئ النهر توقفوا وحلوهم من السيارات، وأطلقوا نارًا من قطع حديدية صغيرة تلف وتدور فى أيديهم بسهوله ويسر، ونزلوا على رءوسهم بالسواطير، ولم يكن أمام العربجية سوى إلقاء أجسادهم بالمياه ليتحول النهر إلى بركة دامية تعج بالعويل والتوسل.

(١١)

تيقظ حيران متفقضًا، ووجد نفسه ممدودًا على كرسيه، فراقب جسده مستغرباً أنه مازال بأربع أقدام وأربع أيادى، والمعزة والكلب والجمل ينامون حوله.

ترجل بعيداً عن شخيرهم ونظر إلى السماء والهضاب الشاسعة، فجفف سكون الرمال أوجاعه وفك خرس لسانه، وسمع خرير مياه النهر وتغريد الطيور.

قال لنفسه: يمكننى هجرة حياتى ومصادقة الطيور، والهروب من أحلامى بالكرخانة التى لا أعرف موقعها، و التحدث مع اليمام عن قوة الزمار والعراف والجربان، ليرحلوا بصحبتى إلى أكوان بعيدة ننعم فيها براحة البال، ونتوحد مع التراب وحبات المطر.

عندما انتهى من حديثه نادى على الكلب، وسأله عن سبب الوفاء، فبكى الكلب قائلاً: أنت أوفى كلاب الدنيا يا حيران، فانتشى ومد يديه إلى ضرع المعزة وشفط لبنها، وسند يده الأخرى الجمل الذى يلد بعرورًا صغيراً، ودخل كوخه ولحس مرة أخرى من الترياق فعاد إلى جسده القديم، شابًا يافعًا بقدمين وذراعين وبطن مشدود وصدر مشعر.

عاد كرجل مكتمل واختفت أوجاعه، وبمجرد عودته شعر بقضيبه يتفخ، فنادى على المعزة التى بركت أمامه، وفتحت مهبلها ليدقها كمحبوبته التى أسرها مقاطيع الجربان.

أثناء قذفه شعر بحزن الأشجار لعدم وجود عصافير، فجاءته الجنية و ضربت الهواء بعصاها فولدت آلاف الطيور، وابتأست الأرض لعدم وجود حشرات تزحف وتنام فى بطنها، فتوسل جنيته لتطرطر على اليابسة، وتشق بمائها ممرات وبركًا مملوءة بمياه دافئة، وتولد آلاف السحالى والثعابين والأبراص، وغيرها من الحشرات التى دفأت أرض الجبل وأعادت تجديد خلاياه.

وسمعت الخلائق عن معجزته وتجمعوا حول كوخه الصخرى طالبين رضاءه، فقام صامتاً من أمامهم ودخل منامته، ولحس ترياقه المخفى بأذنه ليطير مبتعدا عن بؤسهم ويهرب وسط الفضاء.

وبعد طول رحيل توقف فوق مملكة الجنية ليشاهد الزمار الذى سرق تاجها، يتحدث وسط أمرائه قائلاً: أنا النور، الكلمة، صنعت مملكتى من الماء الساكن، وفصلتها عن ممالك الكواكب، وأمرت النجوم والشمس لإنارة نعيمى ليل نهار، وحين انتهيت من وضع كل شىء فى مكانه نمت خمسة أيام لأستريح من نوبة برد أصابتنى أثناء رفعى لصخور جبال الصمت، ووضعها تحت سطح البحر لأسمح لكائنات محيطى بالنمو والكلام.

وحين صحوت وجدت الجرذان والعرس يتشاجرون خلف أسوارى ويسرقون ثمارى، حتى النباتات والحشرات والأسماك زمجرت حزينة من قسوة عوالمهم، وطالبونى بفتح أسوار نعيمى راغبين النوم وسط محيطى، وقام مقاطيع القبيلة والوجوه السعيدة الذين ينعمون في خيرى بقتل آبائهم ليستمتعوا بفروج نسائهم.

اليـوم سـوف تروننـي للمـرة الأخـيرة، لأنـي سـأذهب لإعـادة الجنيـة الهاربـة مـن أسـواري والمفتونـة بقلـب المجـذوب، لكـن احذروني فقـد زرعـت بحدائقـي بـذور العشـق اللانهائـي والـبرص المحـدود، فـإن اخترتـم طريقـي واتبعتـوني فسـوف تنعمـون برحيـق خلـودي، وإن انحزتـم للمـردة سـوف ألعنكـم وأتركـكم طـوال رحلتكـم فى جحيـم العـراف.

صرخ الزمـار وسـط المملكـة فاهتـزت الأكـوان، وعـوى فانتـشر الرعـد، وداس عـلى الجبـل بقدميـه فزلزلـت الصخـور، فهـرب حيران مـن جنـون السـاحر سـارق التـاج الـذي صـدق هيمتـه عـلى عـوالم الزمـان.

(١٢)

عـاش حـيران طليقـاً فى الفضـاء، يـزور عـوالم الجنيـة التـى كتـب عـلى بابهـا: هنـا نعيـم الزمـار، وعايـن خـلال تجوالـه تحـول مملكتهـا إلى واحـة للخـراب والقتـل والدمـار. وشـاهد جمـوح السـاحروهو يقبـض عـلى زمـارة رقبتهـا ويحبـسها فى زجاجـة عطـر، ويلقيهـا مـع الحيـات داخـل زريبتـه، وتجـبر لتخفـي حورياتهـا مفاتنهـن بأزيـاء شـبيهة بالأجولـة، و تمنـى فرسـانه المـوت بعـد خـصى كل ذكـور المملكـة، ورغـم ذلـك سـمع صـوت الأمـراء يشـكرونه ويتلـون أوردة الحمـد لملكهـم الـذى تمكـن مـن رفـع حدائقـه وسـط السـماء بعيـداً عـن ممالـك الجربـان والعـراف والذيـن نعوتهـم بالزنادقـة.

وبهت حيران أثناء مروره فوق مزرعة الوجوه السعيدة لرؤيته وجوههم تلحس التراب، وتبحث وسط أكوام العظام عن الذباب ليلتهموه، وشاهد هوسة المفتون بقوته يبنى مدفنًا ضخمًا قاعدته فى الأرض ورأسه فى السماء ويختفى بداخله.

وتعجب خلال جولته فوق سماء القبيلة من تحول فرسانها إلى بهاليل يتظرون الطيور المهاجرة ليقذفوها بنبالهم، ويتغذون على ريشها وعظامها، وأضحت خيامهم ساحات للاقتتال والتوحش، وانبهر من عجز عرافهم الأمين عن وقف الدم المنهمر على رماهم، واختفائه داخل مخبئه الذى علق عليه جسد البدوية، معاقراً العاجزة ومتفاخراً بأشعاره التى يرددها المقاطيع كأنها أمطار منزلة من فم الزمار.

فجأة شعر حيران بالوجع كأن ذئابًا تنهش عظامه، فتلوى وحاول النوم، لكن صوت ابنه ذو القرنين وهو جالس وسط حواريه فوق جبل عال أعاده ليقظته ليراقب لسانه المنطلق كالمدفع مهاجما ظلم الزمار وتجبره.

أحاط ذو القرنين جيشٌ عرمرمٌ من بقايا عبيد الوجوه السعيدة، وتجهزوا بأحصنة مجنحة لاقتحام مملكته، وصرخوا من الجوع والألم وقذفوا حراس أسوار نعيمه بالنبال الحارقة كى يسمعهم صاحب الحدائق ويفتح أبوابه، لكن حراسه المتوحشين صدوا هجومهم وطاردوا أحصنتهم الطائرة.

وحين اشتد الهجوم بفعل عزيمة ذو القرنين وكاد يخرق أسوار الزمار، ألقى حراسه من السماء ألواحًا على المهاجمين

تلزمهم بقبول شروط صاحب الحديقة: لا دخول للنعيم إلا للتائب المتحول إلى جمل بصنمين وذيل معزة.

ورغم موافقتهم على الشرط، إلا انه وحين يصل أحدهم وبعد طول معاناة إلى الأبواب ويحاول عبور السور يقوم حراس النعيم بالتهامه مع حصانه بدعوى فشله فى تحدى قدره اللعين.

(١٣)

انتصر الزمار على الحالمين بدخول جنته، وسحب حراسه بقوة فاقت الخيال ذو القرنين الممزق وسط الميدان، وعلقوا جسده على باب النعيم وقطعوا رقبته وشربوا دماءه، ونام حيران مكدورا من العجز لرؤيته بدن ضناه ممزقًا كالذبيحة.

وأثناء غفلته شاهد ظله يتجول بمنطقة الكرخانة المملوءة بالروائح الكريهة، وتفاجأ بنفسه يقف خلف سلخانتها، ويغوط بأقدامه فى الدم والجلود وبقايا الحيوانات النافقة.

تلمس أسوارها الغارقة فى الظلام، وشاهد شمحطجيتها منزوعى المشاعر يجرون فتاة أشبه بالقمر من شعرها، نعم هى عزة أجمل فتيات بيت سونة الداعرة التى رآها فى أحد أحلامه السابقة كقرص الشمس.

اقترب منهم وتصنت لحوارهم، وفهم من حديثهم أنهم يؤدبونها لأنها رفضت لحس قضيب المفتى صاحب الأمر والنهى بدلاً من خليلته التى ماتت من السل.

صرخت وهم يغزون جنبها بالمطاوى، ووصل بكاؤها عنان السماء، لكن المكان المقطوع خلف السلخانة لا يمكن لأى مخلوق أن يدخله بعد حلول الظلام.

جروها من أقدامها المجروحة على التربة المدكوكة فى الدم والعظم، وفعصوا نهودها ومؤخرتها بنشوة وجنون، وبرك أحدهم فوقها ودقها بقوة، وتناوبوا عليها كالجرذان وهي تتشنج وتعوى ليرحموها.

لكن الشمحطجية ليس بيدهم قرار، ومغلوب على أمرهم،، وطبقاً لأوامر المفتى وبعد تحويلها إلي قطعة لحم ميتة بفعل الغصب والغز يقومون بحلق شعرها، وقطع ثديها، وتشويه فرجها، وتركها تهذى كالكلبة، ويغادرون سعداء بتنفيذ مهمتهم.

نفذوا أوامره، وتراقصوا فوق جسدها ورحلوا، لحظتها اقترب حيران من جسدها المهتوك محاولاً تخفيف آلامها، لكن لحم لسان ابنه المتناثر فى ميدان النعيم وصوت بكائه الصامت أيقظه من أحلامه

لامس دموعه المنهمرة كالسيل، وتحسر مترنحاً على سجادة الهواء التى ينام فوقها، وتمنى أن يجد فضاءً آخر لا يوجد فيه زمار أو عراف ولا حتى كرخانة.

وبدون شعور صرخ من قلب أعماقه، وعوى من الألم كأن أقدامًا صلبة تدوس داخل جرحه المفتوح بقسوة، لحظتها انشقت السماء واهتزت الأكوان وهطلت الأمطار وكادت سجادته تغرق من ثقل الماء، ووجد نفسه يتدحرج فى سحب من الدموع على أرض فضاء غارقة فى الدماء.

(١٤)

جرفت سيول الدم حيران إلى أراضٍ مغمورة بأشجار محطمة، وشاهد فوق هضابها سفينة كبيرة تمر بجوار مرقده، فنط عليها مدهوشاً من وجود آلاف الكائنات المفزوعة على سطحها.

وخلال مرورها في الكون الغارق شاهد كهف الجبل المسحور يسحب الكائنات البحرية بداخله ويخفيها كأنه مغناطيس لا يدخله إلا أبناء البحر، ونظر في بطن أحد الحيتان ليجد آلاف البشر والحيوانات يهرولون على لسانه الطويل ليختبئوا ببطنه من الطوفان الذي يأكل كل حي أمامه.

أثناء تأمله عيون الكائنات الآملة في النجاة تفاجأ بيد امرأة تلطخه بالكف على ظهره، نظر إليها حائراً، فذكرته بوالدها العجوز الذي كان يعاقرها في وجوده، وابنه المصلوب يوم إخفاقه في اقتحام نعيم الزمار.

بكى على صدرها، وحملها على قضيبه، وعاشرها سبعة أيام وسط الخوف والصواعق، وحين توقف المطر نزلت الكائنات من السفينة وذهب كل حي إلى حاله قامت المرأة بإغوائه ليرجع معها إلى مزرعة والدها لعلهم ينجبون كائنًا يملأ قلوب الوجوه السعيدة بالأمل.

رغم تردده وخوفه من فقدانه راحة البال التى تنعم بها فى جولاته، الا أن سحر المرأة وقوتها جعلته يسير وراءها عريان كما ولدته أمه كى يحقق حلمها.

وحين حطت أقدامهما وسط الحقول لم يصدق حيران وامرأته ما آلت إليه المزرعة التى تصوراها أرضًا خربة لكنهما وجداها مزروعة بالشعير والفول، وآلاف الهاجعين يزرعون ويحصدون ويغنون للشمس، ويقتسمون الزرع والمياه والطعام كإخوة.

جلس مع امرأته تحت جذع شجرة كغريب، وسأل أحد العجائز عن المتمردين وهوسة الجربان، فضحك الرجل بنبرة حزينة قائلاً: ماتوا منذ مئات السنين، وتركوا حكم المزرعة للملك الزمان العادل.

نادى العجوز على ابنته لتجهز لضيفه الطعام، ويغتسل مع امرأته، ويناما بين جدران منامته، شكره حيران واستأذنه ليستكمل رحلته مدهوشاً من الوجوه المشغولة بأعمالها كدبابير تبحث وسط الحياة عن سر بقائها.

أوقفته امرأته وحاولت إقناعه بالعمل فى أى مهنة ليتمكنا من العيش مثل باقي الخلق، فنظر إليها فى وجع كأنه يحمِّلها ذنب نزوله من عوالم الفضاء التى كان يتنعم فيها بالسلام دون غم أو شقاء.

وجلس صامتاً على لوح خشب مغبوناً من تكرار طلبها ونام ليشاهد نفسه بأحلامه يجرى وسط خرارة الكرخانة، وفجأة توقف ليراقب من خلف كوم سبخ شخصًا مشقوق الأنف

يدعي برغوت اللص يسحب مع أعوانه إحدى النساء، ربما يعرفها، نعم هي باتعة الخضرية التي رآها في حضن زوجها وهدان بأحد أحلامه تتأوه من فرط نشوتها، الآن ليس لها أخ أو أحد يحمي عرضها بعد مقتل زوجها وأخيها في مذبحة العربخانة.

استعاد وعيه وجلس على مقعدته ليشاهد برغوت يهددها ويطالبها بخلع ملابسها وإلا دفنها تحت الخراء، كانت دموعها السائلة فوق خدودها وعيونها الباكية مدعاة لسخرية أعوانه فعاقرها أحدهم من الخلف، وأدخل برغوت يديه القاسيتين في صدرها، ودغدغ بأظافره الغليظة حلمات نهديها.

وتطوع آخر برفع جلبابها، وشد رابعهم لباسها، وسندوها غائبة عن الوعي، ومددوها فوق القمامة ليدق برغوت قضيبه في مهبلها، ويمتص عرق إبطيها كالمسعور.

عندما انتهى، وقذف كل قذارته في داخلها تناوب أتباعه على جسدها المفرود، وتراقصوا فوق جثتها، وهي تفيق وتغيب وتبكي وتلطم، وتحاول مداراة عورتها.

تركوها غارقة في الرائحة الكريهة، وحملوا خناجرهم، وغادروا لتصرخ وحيدة في السماء لترحمها من رائحة هذا العفن.

كان حيران يتقدم ليمسح جسدها ويداوي أوجاعها، لكن امرأته غزته في جنبه ليستيقظ، وحين فتح عينه تفاجأ بلسانها يبرطم من جديد ويطالبه بضرورة المكوث والكد في الحقول، فقام مفزوعاً من جوارها، وضربها على مؤخرتها بقدمه.

التمت الخلائق عليه، وكتفوه وحملوه إلى الملك العادل الذى أصدر حكماً بحبسه لتجرؤه على ارتكاب الكبائر دون إذنه وأمر حراسه بوضع المرأة فى قصره لتنعم فى خيره.

هاج حيران ومنع حراسه من لمس امرأته، وصرخ وسط جمع الأكابر الذى يترأسه العادل كاشفاً أسرار خلافة مع ساحرهم الزمار.

نظروا ناحيته باندهاش وسألوا امرأته عن سلامة عقله، فأكدت جنونه بعد صلب ابنهما فى مجزرة النعيم التى أكلت الأخضر واليابس.

عطفوا عليه وأطلقوا سراحه، وسار فى شوارع المزرعة يردد مآثره ومراثيه، والوجوه السعيدة تجلس حوله ساعة المغربية تستمتع بقصصه، وتندهش من قدرة مجذوب على التجوال في عوالم الخيال والعيش مثلهم فى المزرعة كعبد.

(١٥)

بسبب حكايته التى تخفف وطأة الأحزان أنعم عليه الملك العادل بقطعة أرض، وعدد من المواشى والطيور ومنزل يطل على النهر ليتنعم بالعشق مع محبوبته.

وعلمه العجوز الحرث والرى والقلع والحصاد وتخزين الحبوب وصنع الخبز وطبخ الخضار، وأرشدت ابنته امرأته إلى مكان السوق لتبيع خضارها وفراخها وبيضها وألبانها.

ويوماً بعد يوم تعلم الصبر والتحمل، ولقنته النباتات التى يزرعها والحيوانات التى يربيها معنى الحياة وقيمة العطاء، ولم يسعده هو وامرأته أكثر من رؤيتهما ثمار زرعهما تنضج أمامهما، ويتناولها المارة بلذة كأيقونات للبهجة والرضا.

أضحى حيران الرجل المحبوب، فدائماً ما يأتى إليه جيرانه بالمشكلات ليجدوا عنده الحلول، وباتت امرأته أروع نساء السوق، فبضاعتها يتظرها المشترون، ويعطونها مقابلها الملابس والعطور والوانا من المأكولات والمشروبات التى يتناولها الملوك.

تغيرت حياته وبات يضحك على نفسه كلما تذكر أحلامه وأضحى مثل عيد المزرعة يحيا ليستمتع بثمار عمله، ولم يكن لديه وقت إلا للفرح فى أسواق القرية وحقولها، ونست امرأته الجميلة تاريخها وعزها فى قصر والدها، ولم تعد تذكر ابنها ذو القرنين، رغم أن حلمها بالإنجاب لم يمت.

وفى اليوم الذى قررت فيه إعلام حيران برغبتها فى معاقرة خفير السوق ليلقحها، وتنجب منه ابناً يملأ المزرعة بالعمار، هاجت الأعاصير وهاجم القرية فرسان القبيلة، وحرقوا الزرع وهدموا البيوت وسرقوا الأسواق وحواصل الغلال.

وعقب هجومهم حل الجفاف و استمر عدة شهور، ولأول مرة يجوع العبيد ولا يجدون لقمة يتناولونها، ولأول مرة يرغبون فى النوم ولا يجدون مكانًا يصلح لمأوى.

وأمام الجوع اضطروا لسرقة مواشى الملك، وخرجوا إلى الخلاء يبحثون عن دود الأرض ليأكلوه، وعندما تزايد الوباء

تجمعوا فى أماكن واسعه مفتوحة رافعين أياديهم إلي السماء يناشدون الزمار صلب فرسان القبيلة وحماية مواشيهم من القطيس والتوسط عند أمير البحار ليسقط أمطاره.

أضحى هذا المشهد عادة يومية لكل جوعى المزرعة، فها هو الرجل العجوز صديق حيران يشق ملابسه، ويرفع يديه ناحية السماء يطالب الزمار بالرحمة وإشفاء ابنته من الوباء الذى أفقدها النظر.

وفوجئ حيران بهجوم أتباع الملك العادل، للاستيلاء على المواشى والغلال التى كان بعض العبيد يخبئها فى الكهوف، ومن أعترض طريقهم قطعوا رقبته، وصلبوه فى السوق ليكون عبرة لكل معترض.

لم يكن أمام العبيد إلا رفع أياديهم للسماء، والدعاء على الظلمة ليهلكهم الزمار بأسحاره، ويرحمهم من الجوع والذل الذى لا يعرف أحد متى سينتهى.

فى هذه الليلة خرج حيران إلى الحقول الخربة، ونام محزوناً لتأتى الكرخانة التى لا يعرف حتى الآن أين تقع، ولماذا تأتيه وحده دوناً عن الكائنات، ومن هم هؤلاء البشر الذين يحيون داخل أسوارها محرومين من العشق.

وتفاجأ بنفسه يسقط فى مكان مظلم مملوء بالفئران، وسمع صوتًا أجش لرجل يدعى الشيخ يتحدث مع آخر أشيب يسمى القس، ويدعوه المارة بصاحب عصارة المحبة.

تنحنح الشيخ ونصح القس بضرورة رى السيور بدماء أحد الأطفال، وحاول القس إقناعه بأن دم أى قط كاف لإنزال البركة، لكن الشيخ أصر بأن أوامر رئيس العس واضحة، واقترح عليه دم ابن الحداد لأنه هو الوحيد الذى سيجعل رخصة العصارة سارية.

وضع القس يديه الاثنتين على وجهه كأنه يحاول ألا يسمع أو يرى، لكن الشيخ نصحه بأن هيمة ولد شقي، وسوف يحضره العس ويذبحونه دون شعور أحد.

وفى غمضة عين دخل هيمة الصغير محمولاً على أكتاف العس، وبضربة معلم قطع أحدهم رقبته، وبلل الشيخ السير بدمائه، وطلب من القس فعل الشىء ذاته حتى لا يغضب رئيس العس، ويأمر بغلق عصارته.

تركهم حيران مدهوشاً من موت مشاعرهم، وطار ظله حتى وصل إلى بيت الحداد الذى كان يبحث مع امرأته وجيرانه عن طفلهم، لكن المارة العابثين أكدوا أن الحداد يستحق الحرمان من ضناه لرفضه ليلة الأمس دفع الضريبة المفروضة على الحياة.

كاد حيران يصرخ، ويدلهم على مكان هيمة المذبوح، لكن سقوط زوجة الحداد من طولها، ورفع الجيران لجثتها والتعديد على رحيلها جعله ينتظر حتى الانتهاء من دفنها.

وأثناء وضع جسدها فى اللحد صرخت امرأته، ونغزته فى جنبه ليستيقظ من أحلامه كى يتناول فطوره، ويجمع مثل كل العبيد رزقه المنثور فى بطن الحقول.

(١٦)

بمجرد خروج أتباع الملك العادل بمروقاتهم من القرية، قام العيد بتطهير الشوارع ورفع الأنقاض، وتفانوا مع بعضهم ليعيدوا تنظيم الزراعة وبناء البيوت.

وبعد شهور قليلة عاد الجميع إلى حياتهم وتناسوا ما جرى، لكن الملك العادل أصدر مرسومًا يقضي بأحقيته في خمسين بالمائة من أي محصول لمواجهة أي هجوم أو كوارث قادمة لا يعلمها إلا الزمار.

جلس حيران مغبونًا على أنقاض منزله أمام النهر، وتناول بعض اللقيمات التي أحضرتها امرأته، جلس صامتًا يراقب ولا تبس شفتاه بكلمة، يراقب ويبكي مشغولًا بالبحث عن إجابات لأسئلته التي راودته أثناء الهجوم محاولًا اكتشاف سبب عجز العيد عن مواجهة مصائبهم.

كان يجلس ويتأمل، ويعصف ذهنه ليخترق روح الممالك، ويعبر إلى جانبهم المخفي ويرى حقيقة الوجود واضحة كالنور، ويحاول ثقب الجدران التي تمنع الخلائق من الحلم مثله، وتحطيم فواصل الزمان والمكان، والشعور بخيالهم والتجوال داخله، وريه لينمو ويحيل واقعهم إلى أنقاض.

وكلما حاولت زوجته مداعبته أو طمأنته نظر إليها ضجرًا، أو ربما يخاطب روحها المخفية بجسدها ليغويها لترحل معه إلى عالم آخر مكشوف عنه حجاب اليقين.

حينما تسأله بصمت: وأين هذا العالم يا حيران، يبكي ويقول لا أعرف، لكنه يتواصل معها بعد فترة، ويهمس دون صوت: أنا واثق أن هناك كونا آخر خلاف هذا الكون وممالك أخرى خلاف تلك الممالك التي يحكمها الزمار أو الملك العادل، لكني لا أعرف مكانها، وغدًا سأخرج لألقاها عند مدخل النهر لأن جنتي ليست وسط عوالم الدم والضياع.

فترد روحها الغارقة في السكون: لن أرحل معك إلى مجهول لا تعرف مكانه، فأنا أحتاج إلى الاستقرار والعشق، والعيش مثل كل العبيد دون أوهام أو خيال.

احتضنت المرأة روحه الحائرة واستكملت: إذا رحلت فسأدعو غفير السوق المشوق ليدقني، وأنجب منه أطفالي، وأبني إمبراطوريتي هنا، لعل أبنائي يعمرون مزرعة والدي ويستعيدون وجوه أهلها السعيدة.

خرجت مكدورة، وكسرت فخار الزير بقدميها، فقام حيران وسار حتى فتحة جدران منامته وتسحب إلى الخلاء الواسع باحثًا عن جنة خياله التي لا يوجد فيه أمراء أو فرسان أو أتباع.

(١٧)

ظل شهورًا سائرًا في أرض فضاء، واقتحم بجنون مجهول يعرف أنه ينتظره، وأنه سيصل إليه مهما كلفه الأمر، كان يأكل من زبد الأرض، ويشرب من مياه المطر، ويخزن بعض الخضر

والفاكهة فى بؤجته، وينام تحت الأشجار وعلى ضفاف الأنهار متونسًا بصوت العصافير أو الذئاب.

كان مطلوقًا لا يعرف موضع خطوته القادمة، ولكنه واثق بأنه سيصل، إلى أين، لا يدرى، لكنه متيقن بانجذابه ناحية موقعه القابع بخياله، والذى يظهر بواطن الكائنات وجوهرها كنور الشمس.

كان مؤمنًا بقدرته فى الوصول إلى هذا المكان الذى لن يجد فيه ملوكًا ولا حرمانًا ولا تقيًا ولا قيودًا ولا جدرانًا، لكن أين هذا المكان، لا يعرف، فيواصل سيره ويلاغى الجبال، ويحدث طيور السماء ويسألهم، فيغردون حوله، وربما يسخرون من طيشة، لأنهم منذ وجودهم لا يعرفون إلا هذه الدورة، ميلاد وحياة وموتًا.

فيرد عليهم بصوت عال: إذن ما هذه العوالم التى تأتينى بأحلامى، وإذا كانت رحلتى ستنتهى هنا فى هذه العوالم، فأين هى الكرخانة، ولماذا يتحمل أهلها العيش بين جدرانها القاسية وينامون ويتيقظون ولا يشعرون بعوالمنا.

يضحك النسر بعد أن يحط على كتفه ويقول: إنه خيالك يا حيران، لا يوجد سوانا، لكن اضطرابك ووجعك، وربما قناعتك بتواصل وجودك، أوضلالاتك هى ما تجعلك خلاف كل الكائنات تعتقد بأن هناك حياة تنتظر نومك لتعايشها فى أحلامك.

يبكى حيران بصوتٍ أجش حزين فتصحو أشجار الغابات، وتسبح الأسماك فى المحيطات لتقترب وتسمعه وهو يقول:

عشت كالملك أتجول فى فضائى، وعاشرت السحرة والعرافين ورافقتنى الجنية، وكان لى ابن يسمونه ذو القرنين.

فصرخ الكائنات حوله كأنها تندب حاله وتواسيه؛ لأن خياله يرفض قبول حياته والاستسلام لقدره وقبول مصيره.

ينام باكيًا مرددًا فى صمت: جثتى ليست هنا، جثتى ليست هنا، ويأخذه سلطان النوم ليشاهد نفسه فى البقعة التى تتوسط أحياء الكرخانة، ويتوقف مذهولا من جنون الأهالى الذين يقذفون الشمحطجية بزجاجات البيبسى والطوب الممنون لإصرارهم على غلق دكاكينهم، واتهمهم بنشر الرذيلة بالبقعة الشريفة.

لكن بعض الأهالى يقولون إن الهجوم سببه رفضنا دفع الإتاوة التى يطالبنا بها الشمحطجية كل طلعة صبح، ويدعون أن قاضى القضاة والمفتى والعسس يشاركونهم الغنيمة.

طار حيران إلى الأشجار التى تتوسط العركة وجلس فوق أحد فروعها، ورأى المقاطيع يقذفون بنبالهم الحارقة قطع الحديد المشتعلة ليسقط من يسقط ويهرب من يهرب، وذهل من صمود أهالى البقعة الذين يواجهون نار الشمحطجية ورصاص العسس برءوسهم العارية لتطاير دماؤهم وتنتشر فى السماء كأنها صنابير دم منفجرة من الذل.

واصل الأهالى مقاومتهم ببسالة حتى فرغت أجسادهم من الدماء، ولحظتها سقطوا على الأرض غائبين عن الوعى، فداس المقاطيع على جثثهم، ودخلوا دكاكينهم وحملوا بضائعهم بأجولة

الخيش، ورفعوها فوق سياراتهم المتهالكة، وأشعلوا النار فى الجثث وتوجهوا مع العسس إلى خارجها.

لكن رجلًا يدعى سعدون الجزمجى لم يفر أو يسقط، وقف وسط الحريق وصرخ وهاجم العسس بصدره العارى قاذفًا حشودهم المنسحبة بالزجاج المدشوش.

توقفوا مدهوشين من صموده، وعادوا بسياراتهم، ونزلوا منها كالذئاب، وأحاطو بجسده الدامى، وقطعوا حلمات أذنيه، وخرموا إحدى عينيه، وألقوه على السيارة فوق البضاعة، وغادروا سعداء بنصرهم.

كاد حيران يوقف سيارة العسس ويخطف سعدون ليؤاخيه فى عالمه الذى يبحث عنه، لكن أحد النسور نقره ليفوق من أحلامه ويواصل رحلته إلى جنة خياله الخالية من الأمراء و الفرسان و الشمحطجية.

(١٨)

حين تيقظ سار صامتًا مكدورًا، وتفاجأ بسور خرسانى ضخم يصل من السماء إلى الأرض على مدد البصر شمالًا ويمينًا، نظر إليه بعجز وجلس كالميت خلفه ينتظر المدد.

انتظر فترة طويلة لعله يلمح أو يشعر بأى كائنٍ حى، لكن أمنياته لم تتحقق فقرفص مخنوقًا كالقنفذ، وبكى قائلا لنفسه: لا

يمكن أن تكون هذه النهاية، ربما أنا داخل حلم، وربما هيمن الزمار على عقلي ليعمق حيرتي، أو ربما تمكن العراف من ذاكرتي، وسرق بصيرتي ليجعلني هائمًا على وجهي وعاجزًا عن الوصول إلي جنتي.

غفل دون إرادته ورأى نفسه وسط حي مملوء بالباعة والمشترين والمقاهي والمطاعم، وتقف في شرفاته نساء عرايا تنادي على المارة ليصعدن ويعاقروهن.

رأى بشرًا يرتدون ملابس بيضاءَ، ويضعون على رءوسهم طواقي و شيلان، ويبتهلون ويرددون أناشيد وأدعية غريبة يمكن أن يكون قد سمعها في أحد أحلامه.

رأى ابنه ذو القرنين يركب قطعة حديد، ويضع أعلاها ماسورة، ويطلق منها النار على جميع الكائنات ليؤمنوا بعقيدة جديدة سماها الركوع والحمد.

عاين فزعًا وكرهًا ينتشران في شوارع وحواري ضيقة، وشاهد جواميس وأبقارًا ترعى في مزارب قذرة، ورأى جزارين يرحون وراءها، ويجزون رقابها، ويعلقون لحومها على خطاطيف حديدية، ويوزعونها على المارة مقابل بعض الأوراق.

كانت رؤية طويلة ذكرته بأحلامه عن الكرخانة التي لا يعرف مكانها، ولكنه واثق من نومه فوق قمامتها، نعم هي غريبة عن واقعه وحياته، لكنه يشعر بأن شوارعها وخرارتها وخرائبها وأهلها جزءٌ من تكوينه، لدرجه أنها ظهرت أمامه كلوحة ونادت عليه كامرأته قائلة: يا حيران، أنا الكرخانة ألا تتذكرني،

أنسيت من أطعمك ورباك، أنسيت القطب والمجاذيب، ماذا حدث لك يا درويش، ألا تخجل من غفلتك، وأى قيمة أو حياة تحاول عيشها بعيدًا عن رائحتى، انتبه فأنا جنة أحلامك وسبب حياتك ومغزى رحلتك ومصدر أعماقك، فكيف نسيتني يا مجروح، يمكنك العودة والاندماج برائحتي، فأنا خلاصك، تيقظ يا مذبوح لتطهّرنى من رائحة الدم والخراء.

(١٩)

عندما عاد إلى وعيه وجد نفسه فى مواجهة الجبل الصامد الذى يصل السماء بالأرض، فأمسك قدومه كأنه عرف طريقه، وظل يدق ويحفر أيامًا طويلة حتى وصل إلى باب مفتوح بعمقه واندفع داخله بؤجته.

سار مسافاتٍ طويلة فى أنفاقه، ولم يهب الخفافيش والأفاعى التى تزحف بجواره، وتندهش من وجود كائنٍ عاقل يسير بجوار أسرابها السامة دون خوف.

وعند ربوة عالية تحت طاقة مفتوحة للسماء تفاجأ برجل أعمى يسبِّح ويردد بصوت خفيض أسماء الشجر والطيور، ويتلو أورادًا جعلت نجوم السماء تقترب من طاقته، وترسل نورها المشع فوق منامته.

شعر الرجل بوجوده، فناداه بصوت مسموع قائلا: يا حيران اقترب، ذهل حيران وسأله هل تعرفنى؟ فابتسم قائلا:

لا يدخل هذا النفق إلا الحائرون، أنا مثلك كنت أبحث عن جثتى، فأحضرنى أتباع الملك العادل إلى جبل الصمت لينعموا بمعاقرة الخلائق بضراوة ولذة دون معارضة أو امتعاض.

واستكمل يحكى عن مملكة الوجوه السعيدة الذين تحولوا إلى عبيد، وبات أهلها يعبدون الكلب الوافى، ويؤمنون بأنه يحمل عرش السماء فى قلبه خوفًا من الذئب الغادر الذى سرق لبن العصفور.

سأله حيران: كيف وصلت وأنت أعمى إلى بطن الجبل والجلوس فوق هذه الربوة، ضحك الرجل قائلا: أنا وجهك المنير يا حيران، أنا دموعك وطاقة النور التى تترسب منها رقتك، ويتدفق منها سلامك.

أغلق الرجل فمه ومع ذلك سمع حيران صوت مشاعره يقول: يا حيران لا يوجد شىء، وكل شىء موجود، كل ما تراه بعينك مظاهر لروح واحدة انفصلت وتقطعت بعد طمع الملوك وصراعهم لامتلاك الغلال وملء حواصلهم بدماء وعرق الجواميس والوجوه السعيدة.

يا حيران لا تسأل لأنهم سرقوا أحماسينا، وشقوا قلوبنا كى نكون بين أيديهم كالميت بين يد الغاسل، لكن الحالم الذى أزال الجدار وشعر بوحدة أعضائه وتواصلها مع باقى الكائنات يمكن أن يتحرر ويقول للشىء كن فيكون، أنت لا تحتاج إلى الكلام لأن قلوبنا تحس بهمس الفرح والوجع قبل أن يعبِّر عنها اللسان.

انتفض الرجل من مكانه وشعر حيران بتواصله مع قلبه وسالت دموع الاثنين فى الوقت نفسه فاستكمل دون صوت:

لا تصدق أن هناك زمارًا أو عرافًا أو جربان أو ممالك هاربة فى الفراغ، فكل هذه القصص من إبداع خيال ثعالب الملوك الذين يرغبون فى مص عرق الكائنات وإذلالها.

نعم أعرف أنك عشت فى هذه الممالك، لكنهم أدخلوا هذه الأوهام إلى خيالك، وطلبوا منك أن ترفع يديك إلى عروشهم وتتوسل الرحمة والنجاة من جحيمهم، لكن الحقيقة يا حيران أن كلَّ كائن يهرب من قسوتهم ويتخيل جنته التى يحلم بوجودها، ولن تنتهى أوجاعنا مادام هؤلاء الملوك قابعين على عروش قلوبنا ويملأون خيالنا بتلفيقات أبدعوها لتستمر هيمنتهم على مقاديرنا.

سالت دموع حيران على الأرض وانهمرت كنهرٍ فقام الرجل وأخذه بحضنه ليذوبا ويتوحدا ويقول بصوت مسموع: لا تؤمنْ بأكاذيبهم حتى ولو مثلوها فى خيالك أو أمامك آلاف المرات، لأن قلبك الصافى البرىء يبحث عن جنة خياله، وعُدْ يا حيران إلى الكرخانة وأطلع أهلها على الحقيقة، علهم يشعرون بجنتهم التى حلموا بها يوم ولادتهم، عُدْ يا حيران فقد غنمت السلامة.

ودون مقدمات قام الرجل وترجل، وأشار بأصبعه ناحية مدخل النفق، فدخلت بعض العصافير ورفرفت أوراق أشجاره، ولف كالمجذوب حول نفسه، وظل يرقص مع الطيور، ويردد بلسانه كلامًا غير مفهوم، ويصرخ ويبكى ويضحك حتى عم الصمت.

ظل فترة طويلة واقفًا كأنه مصلوب، وفجأة جلس مكانه، ونادى على حيران قائلا: أنا وأنت وهؤلاء وكل كائن حى أو جماد ماذا نبغى، إذا أردت الوصول إلى الحقيقة وكشف الحجب

يجب أن تسمح للنور بالنمو داخل أعماقك ليزيل الجدار الواهى بين واقعك وخيالك.

داس على يد حيران بقوة، وردد بعض الأوردة، وطالبه بحفظ أسراره، وعاهده بألا يدخل جوفه أى فكرة أو لقمة كريهة، وفتح بؤجته ليأكل حيران، ويتكرع من العشق.

ودون إرادته قام حيران ليستحم فى الماء المركون بإحدى الحفر، وينام عريان نظيفًا لا تراوده أى أسئلة أو أوجاع، كل ما تمناه أن ينسى وجوده ويتوحد مع رمال الجبل وصوت الطيور ونسيم الهواء ويتلاشى بين أمواج النهر.

(٢٠)

أثناء نومه شاهد نفسه يرتدى جلبابًا أخضر، ويضع على رأسه عمة حمراء، ويمسك فى يديه زهرة قرنفل، ويمشى بتروٍّ وسط خيوط العنكبوت التى أرشدته إلى شاطئ البحر.

جلس يتنسم طراوته ويستمتع بقرقعة الأسماك المرحبة بوجوده وعندما تشبع من النسيم زالت أوجاعه وخفت جروحه، وشاهد طيورًا تملأ السماء وتغرد، وسمع سحلية تنادي باسمه وتجرى أمامه ليدخل حقولها.

تبعها وجلس متوحدا مع عيدان الحشائش، ولفت الحشرات حول جسده الخفيف وتراقصت أشجار البرتقال وألقت بعبيرها فى أعماقه ودعته للنوم داخل ألوان زهورها.

وحين فرد جسده على الأرض شعر بجذور تخترق ظهره وتغوص فى التربة، وانبثقت من أقدامه جذوع شجرة صفصاف وشاهد أصابعه تتطاول وتتحول إلى فروع وأوراق، وخرجت من أظافره رءوس أطفال تتمايل وتضحك مبتهجة بوصوله إلى عالمهم واندماجه فى أرواحهم.

تنبه على صوت مطر هادر وسيول تنزل بقوة من السماء، ووجد نفسه عريان وحيدًا بعد تحول صخور الجبل من حوله إلى مرتع للقمامة.

وشاهد فى السماء طائرًا عجيبًا، جسده عبارة عن عيون مفتوحة تنزُّ بالدموع، أشار الطائر بجناحيه إلى مكان قميء محاط بأسوار وجدران سوداء ورائحته عفنة كريهة، وطالبه بالصمت والاختفاء تحت أكوام الوسخ ليحتمى من قوة قلوب المقاطيع وشرر عيون الشمحطجية.

تيقظ وفتح عينيه مدهوشًا، ووجد نفسه مرميًا تحت أنقاض خرابة الكرخانة التى كانت تأتيه بأحلامه، نفس وجوه العسس التى يعرفها تقلب فى جسده بدهشة كأنها تتيقن بأنه مازال على قيد الحياة.

نظر حوله بريبة، نعم هذه هى الخرابة، تحسس وجهه بذهول، وعاين الدم اليابس الذى كان يسيل من جنبه، والدموع الجافة التى كانت تسرب من عيونه باحثا عن القطب الذى كان يعلمه قيمة العطاء والتواصل، فوجده مقتولا بجواره ووجهه مازال مبتسمًا.

العالم الثانى

الكرخانة

(١)

هاهى وجوه الباعة والمشترين تملأ النواصى، وتفسح الطريق أمام السيارة التى تحمل جسد حيران وتخترق شوارع الكرخانة، يفتح العسس صندوقها ويسحبونه من يديه المقيدتين فى الحديد ويركلونه بالأقدام، ويدخلونه فى سراديب طويلة ويفتحون أحد أبوابها، ويقذفونه وسط المحابيس ويمكرون عليهم بالأقفال.

كان جائعًا فمنذ غيابه عن الوعى فى الخرابة لم يتذوق طعم الزاد، وكان يحتاج إلى كوب مياه كى يبلل حلقه الجاف.

تأتأ كغارق يشرف على الموت: ماء ماء، فحاصرته وجوه مشقوقة ومغلولة، وسخر رئيس المحابيس من صوته الهادئ وسأله: أنت معزة ولا مجذوب، أنت قتلت القطب ولا الجنون الزرق اللى راكبينك هما اللى سلطوك يا واد.

كان متعبًا بسبب الدم الذى نزف من جرحه، فدار بعينيه بين الجدران المخنوقة ودخل الحمام محنيًا برأسه وشرب من الكنيف حتى ارتوى.

سحبه سعدون الجزمجى إلى جواره، وربط جرحه بقميصه، وفتح كيسه وأعطاه رغيفًا مملوءً بالملح، فتناوله محمومًا وجلس جوار الحائط يلتهمه ككلب.

أغمض عينيه متجاهلا صراخهم، وشجهم وجوه بعضهم بالمطاوى، وتغاضى عن زجرهم لجسده ولصقه بالحائط، وحاول النوم لعله يرحل عن عوالمهم المخيفة.

وحين عم الصمت وارتفع بعد فترة شخيرهم، وتلاصقت أجسادهم كجذوع النخل ارتمى بجوارهم على الأرض محاولا استمالة سلطان النوم ليهرب من طعم الهواء المعبق برائحة الجيف.

لكن أحدهم دعبس بلحمه وشد جلبابه، وحاول وضع قضيبه فى مؤخرته، فصرخ ليغلق المسجون فمَه ويكتفه حتى يتمكن زميله من معاقرته، وبعد قذفه المنى فى فتحته انسحب من فوقه ليركبه زميله، ويكتم بكاءه بكف يديه.

لم يشعر أحد بما يجرى وربما شعروا وصمتوا لأن الرجلين اللذين عاقراه دفعا لرئيس المحابيس كى يتعامى الجميع وينخرسوا.

تيقظ سعدون على صوت أنّاته المكتومة ونهرهم، وأخذه بحضنه ماسحًا دموعه، طبطب عليه وأزاح قذارتهم بكُم قميصه، وطلب منه إنشاد بعض الأدعية، فتجاهله وشد لباسه ليغطى لحمه، وجلس كالميت يستمع لطنين الذباب.

(٢)

أحد الأيام جروه كالذبيحة إلى المحكمة، وسأله قاضى القضاة عن كيفية قتله للقطب، وحين حاول سماع كلماته

الغامضة رفع القاضي الجلسة وطرد أهالى المحابيس، ونزل من فوق منصته وأخذ سوطا من يد أحد البلطجية، وجلده على وجهه وظهره كي يعترف.

كان حيران يبكي ويقول: جاى الحقونى، وينظر إلى صورة الميزان المعلقة فوق المنصة مندهشًا من تواصل نزول الأسواط على جسده ورأسه.

تكور على نفسه مرعوبًا، ونظر إلى البلطجية الذين يلفون القيود فى يديه، فتنحنح القاضي مقررًا إعادته إلى الجبخانة حتى إحضار الشهود.

سحبوا جسده المهلوك وربطوه فى السلاسل، وجروه وسط بهو المحكمة المملوء بالصراخ والعويل، والمرسوم على سقفه صور أموات ترفع فى أياديها مكاييل معوجة.

وداسوا بأقدامهم على جثث تمرغ فى البصاق وتتمنى عيونها المذلولة إشفاق أحد الأهالي لرى ظمئها أوسماع أي صوت يعلن براءتها ويحقق حلمها بالخروج للنور.

وعندما دخلوا من أسوار الجبخانة وعبروا الراديب وألقوا حيران داخل الحجز وأغلقوا الباب، رق قلب سعدون لرؤيته، وأمر المحابيس بعدم المساس بجسده، وحكى لهم عن حلم راوده ليلة أمس جاء فيه القطب بنفسه، وأمام ذهولهم استكمل كأنه ممسوس: كان القطب يلبس رداءً أبيض وله أجنحة ويطير فى السماء، أيقظنى من النوم، ودق على قلبي ثلاث دقات،

فشعرت أن روحي تطهرت، وعادت قدمي المقطوعة لمكانها، وأضحى قلبي صافيًا مثل النسيم.

وحين فتحت عينيَّ قال الشيخ: حيران بريء، ولا يمكنه ارتكاب المعاصي، قاتلي هو المفتي حاكم الديار؛ لأنه يرغب فى طرد المجاذيب من الخرابة، وغلق التكية ليستولى على أرضها، ويقيم مكانها أسواقه.

نعم سلط برغوت اللص ليتهددني لأرحل، وحين رفضت تسحب وسط الظلام مع المقاطيع، وتهيأ فرصة نومي وذبحني، وأثناء صعود روحي إلى قبة السماء، ورؤية فيضها المنير، ورغم قطعه لرقبتي وقفتُ على قدمي، وشددتُ قميصه فقطع يدىً بسيفه.

لكن كُم قميصه مازال بقبضة يدى تحت غطائي فى التكية، ويمكنك قول الحقيقة وكشف الملعوب، وإخراج حيران من السجن، ولحظة ظهور الفجر غادر القطب وتركني حائرًا.

عندما انتهى سعدون من الحكاية، صرخ ودقَّ على الباب الحديدي، ونادى على الحراس، وطلب منهم مقابلة المأمور فى موضوع حياة أو موت، فأصعدوه إلى حكمدار السجن ليبلغه بقاتل القطب، وفى اليوم التالي قبضوا على برغوت وأطلقوا سراح حيران.

(٣)

توجه حيران إلى التكية القابعة وسط الخرابة المملوءة بأكوام القمامة، كأن أقدامه لا تعرف سواها، لم يكن أحد من المجاذيب هناك، ورغم ذلك لم يكن سعيدًا لأن الدم الذى لطخ وجهه مازالت آثاره باقية في حلقه.

تمدد على أرضية التكية، لكن ملك النوم هرب كأطياف الموتى، ولم يشعر إلا بالذباب المتراكم على أنفه وفمه ورائحة العفن المنتشرة حوله.

اقترب الشمحطجية من بدنه وركلوه بأقدامهم، وطالبوه بالرحيل حتى لا يشوهوا وجهه، وأخبروه بأن أرض الخرابة تمت مصادرتها وإعادتها للمفتى صاحب الديار.

أثناء رحيله شاهد البلدوزرات تجوب الخرابة، وترفع أكوام الروث وأكياس العفن، وتدخل بصوتها المرعب حوش التكية، وتهدم جدرانها الطينية، وترفعها على مجارف وتضعها فوق سيارات ضخمة.

لم يكن يعرف مكانًا أو أحدًا يذهب إليه، فتوقف عند موقف الكارو، وجلس على الرصيف وبؤجته الفارغة فوق ظهره.

كان يبغى مأوى ليريح جسده المتعب، ويأمل فى أى لقمة أو شربة، أو وجه رحيم يطبطب على ظهره، لكن الأطفال تكالبوا على وجهه المجروح، وقذفوه بالطوب، وجروا وراء جثته التى

حاولت الاختباء بين العربات وخلف الحمير ودخلت الحوارى آملة في الرحمة، وحين صرخ: ياناس يا هو، قام طبال الكرخانة بمنع الأطفال والمقاطيع من التعدى عليه، وطالبهم بالابتعاد وسحبه بعيدًا، وأجلسه على المقهى وسط صحبته.

شعر حيران فى وجود الطبال ذى العيون الباكية بالأمان، فحكى بصوت مسموع عن رحلته بين المهالك، حكى بيقين عن عوالم ظلوا طوال عمرهم يعدونها من الخيال، واستمعوا إليه كأنهم يحيون داخل حلم.

أحاطوه بمودة، وغابوا للحظات بعيدًا عن رائحة بيوتهم وشوارعهم، ودخلوا عالمه وذابوا داخل عيونه وهو يصف قلب الجنية المسحورة والعاجزة الفتية وامرأته الجميلة معبودة الوجوه السعيدة.

سمعوه وجلسوا على مصاطب المقهى المفتوحة على السماء، وتركوا دكاكينهم مفتوحة دون خوف من اللصوص أو الهاجعين، وأغلق القهوجى التلفز، وباتت شوارع الكرخانة خالية من كل الخلائق التى أحاطته كأنها تسمع نبيًا يلقى موعظة النجاة

(٤)

كان العسس ومقاطيع المفتى يجوبون الشوارع، ويقبضون على الحناكيش الذين يرفعون أصواتهم أو يشتكون الألم، وحين اقتربتورديتهم قام الطبال بسحبه من المقهى، وأودعه بمنزل

ســونة باعتبــار بيتهــا هــو المــكان الوحيــد الآمــن فى الكرخانــة.

اسـتقبلته المـرأة بفـرح، وأحاطتـه فتياتهـا بحبٍّ، وتحســـن جســده كأنهــن يتطهــرن مــن قــذارة الرجــال، ووضعنــه فى غرفــة بالــدور الأرضى حتــى لا يلمحــه العســس أثنــاء تفتيــش مخورهــن.

ألبســته الفتيــات رداءً أبيــض، وكنــســن حجرتــه، وفرشــن بطانيــة نظيفــة عــلى الأرض ليرتــاح عليهــا، ونــام كالميــت ثــلاث ليــالٍ متواصلــة دون شــعور رواد البيــت بأنفاســه.

رغــم نومــه الطويــل كان الطبــال يأتــى كل يــوم ليطمئــن عــلى وجــوده، وفى الليلــة الرابعــة حــضر مــع النجــار والحــداد، وبعــض الحرفيــين ليتباركــوا بوجــوده.

نظــر فى وجوههــم كأنــه لا يراهــم وفــرد قدميــه، وســألهم عــن سر طــيران الفراشــات وصــبر الحمــير، فصمتــوا ليســتكمل حكايتــه عــن جنــة خيالــه الغارقــة فى نهــر الــبراءة.

ســمعوه بانبهــار واندهشــوا مــن قدرتــه عــلى التحليــق بخيالــه إلى عــوالم يعجــزون عــن تصورهــا، ودعاهــم للعبــور إلى واحــة أحلامــه بعيــدًا عــن حياتهــم.

نظــروا إلى بعضهــم فى صمــت وتــســاءلوا: كيــف لمجــذوب العيــش وســط حياتنــا الغارقــة في الخــراء متخيــلًا رؤيتــه لعــوالم الغيــب والعيــش داخــل فضائهــا كمــلاك.

كانــوا مجذوبــين إلى قصصــه ومتشــوقين لمعرفــة نهايتهــا، لكنــه توقــف عــن الحكــى ونظــر فى وجوههــم وغــرق فى الصمــت كنائــهِ

وسط أعماقهم المحزونة.

لحظتها تركوه وقاموا من جواره كغرقى أصابهم مس من موجه العاتى، وساروا داخل شوارع الكرخانة كأنهم مجهولون أو عابرو سبيل.

فى أحدي لقاءاته وأثناء حديثه معهم عن جنة الجنية وجحيم الجربان اقترح الطبال بطريقة لم يتوقعها أحد تكوين مجموعة لتطهير الكرخانة من العفن، واستكمل منبهرا من نفسه: أليست أمنيتنا إزالة هذه الرائحة من حياتنا، فلماذا لا نخطو داخل حلمنا ونحولها إلى حديقة.

(٥)

كانت مهمة النجار شبه مستحيلة؛ إذ كيف سيتحدث مع الكرخانيين الذين يغرقون فى الروائح الكريهة عن فوائد النظافة وأهمية التطهير.

لكن زيارته لورشة الخياش ألهمت عقله بسر تواصل الخيوط لإنتاج جوال خياش يصلح لملء أعماقه بالغلال.

استقبله الخياش مبتسمًا وقال وهو يلف بالمسلَّة الخيوط وراء الخيوط : بالصبر ومعرفة مداخل الغرزة ومخارجها يمكنك صنع الثوب، ويمكن بإتقانك لخبايا المسلات والقماش أن ترسم عليه وجه عصفورة أو شجرة.

ودون ادراك انطلق الطبال وجمع فرقته ودخل إلى البقعة كبهلوان، ومثّل أمام الباعة شكل أشجار الحديقة وزهورها الفواحة، وألهمهم ليتخيلوا لون المصاطب التي يجلسون فوقها على شاطئ النهر والحواة من حولهم يتراقصون.

بعدها عاونه النجار والحداد في دخول بيوت الكرخانيات واستمالتهن ليحلمن ببستان يخرجن إليه بعد تعب النهار ليرتحن من رائحة الطبخ والغسل ويتلحفن بالسماء الواسعة بدلا من الأسقف المليئة بالعنكبوت والحشرات.

وذهب إلى المساطيل والحرفيين على المقهى ودقّ على طبلته فقاموا عن بكرة أبيهم بعد سحب ألحانه حبال قلوبهم من فراغات السيجة والتفاخر بالنط على دواعر بيت سونة، وتراقصوا حوله على كلمات أفصحت عن طعم قبلات العشاق بين مروج الأشجار.

سخر الشيخ والقسّ من جنون النجار أثناء غنائه مع فرقته أمام بيوتهما وتمثيله رفع القمامة وزرع الحديقة، لكن رواد بيوتهما أشفقوا عليه وتخيلوا للحظة حلمه وشعروا بانتفاض قلوبهم وهم يجلسون في الخرابة التي امتلأت بالأشجار المحيطة بشاطئ النهر.

وروجت سونة وبناتها وسط زبائنها لحلمه، ونظّمت كل ليلة حفلة مجانية أمام بيتها ليتراقص مع فرقته وهي تنشد مواويل عن تحويل الخرابة إلي حديقة تشع من أشجارها روائح العنبر والفل، وعملت سونة تخفيضًا لكل زائر يسمع ويشارك فرقة الطبال الغناء والرقص قبل دخوله حجرات فتياتها.

وامـام جموحـه طـارده الشـمحطجية وأشـاعوا انتـهاءه لفـرق الهراطقـة وطالبـوا الكرخانيـين بمعاداتـه لاحتقـاره حياتهـم المتواضـعة وبثـه أكاذيـب عـن خسـه تواضعهـم وقـذارة حياتهـم.

ورغـم ذلـك بـدأت فكرتـه واحلامـه تتداول عـلى المقاهـى وداخل البيـوت وبـين الباعـة والمشـترين فى البقعـة، وأضحـى لحلمـه أنصـار يدافعـون عنـه ويتجاهلـون سـخرية أنصـار الشـيخ والقـس الذيـن تعاملـوا مـع الموضـوع كطرافة تخفـف عـن الكرخانيين بـؤس حياتهم.

وتكونـت بقـع ومجموعـات مـن بـشر هاجعـين وآملـين، التفـوا حـول النجـار والحـداد والطبـال أثنـاء حديثهـم عـن فوائـد تطهـير أعماقهـم وحياتهـم، و تعجبـوا مـن قيامهـم كل ليلـة بتوعيـة الكرخانيـين ودحـض إحباطاتهـم ونسـيانهم حـيران فى بيـت سـونة التـى تفانـت مـع بناتهـا فى خدمتـه كأنـه نبـى منـزل مـن السـماء.

(٦)

أحـد الصـباحـات أيقظـت سـونة حـيران قلقـة مـن آهاتـه الحزينة، تحسـت وجهـه برقـة، ووضعـت أمامـه طبـق فـول ورغيفـين، وصعـدت لحجرتهـا تراجـع حسـاباتها وتـشرب حليبهـا.

لم يكـن فى المنـزل سـوى عـزة المشـوهة التـى رفضـت لحـس قضيـب المفتـى بعـد مـوت خليلتـه، كل الفتيـات غـادرن إلى قـصر قـاضى القضـاة لتخفيـف ضجـر بلطجيتـه، ويمكـن مكثوهـن هنـاك عـدة أيـام حتـى يمتصـوا رحيـق أنوثتهـن.

وكعادة عزة قامت بمسح بلاط الحجرات، وغيرت الملايات، ونشرت المراتب على سور البلكونات، وطهرت الحمامات، وأضحى المنزل روضة تشع بالطهارة.

ودون إرادتها تحت ونزلت إلى حجرة حيران، وسألته دون مقدمات: انت كنت خلف السلخانة يوم ما برغوت ورجالته حرقوني.

تجاهل صوتها وتوقف بمواجهة جسدها المرتعش، ومسح دموع عينيها، وحضنها حضناً طويلاً حتى سقطت من طولها على الأرض.

مددت جثتها وخلعت ملابسها، وفردت اطرافها أمامه ليعاين تشوهاتها، فأغلق عينيها بأصابعه، وتحسس جسدها من أخمص قدميها إلى رأسها بنعومة لم تشعر بها تحت فخذ أى رجل.

بكت بحرقة وهو يلامس جلد قدميها، ويمسح الألم بين أصابعها بلسانه، صرخت وهو يزيل القهرة مكان ثديها المقطوع وفرجها المحروق برقة جعلتها تشعر برائحة موج البحر.

وحين انتهى من السباحة داخل جروحها قامت كفراشة بجناحين كأن نهودها عادت منتفخة على صدرها، وتحسست فرجها وشعرت كأنها فتاة مازالت فى سن البلوغ، ارتدت ملابسها وغادرت مبهورة من عودة خيال أنوثتها إلى أعماقها.

أستمر حيران طوال النهار وحيدًا فى حجرته، لم يكن يعرف أحد ما يدور بخلده، ربما هو نفسه لا يعرف، سار إلى جوار الحائط ببطء، وتحسس الجدران، ووضع أذنه على شباكها المغلق كأنه يتصنت على أقدام المارة فى الشوارع.

ظل يدق على الحائط، ويراقب أسراب النمل التى تنظر إلي عينه وتبكى، ثم تعاود سيرها ناحية أرغفة الخبز، وتحمل بعض اللقيمات وتعود آمنة إلى مخابئها.

ربما أرشدته إشارات النمل إلى تناول طعامه، فالتهم أرغفته، وقام مفروداً، وكان الليل على وشك الانتهاء، وبدأ الصمت يرج شوارع الكرخانة، ودون إرادته حمل بؤجته الفارغة، ونظر إلى أسراب النمل كأنه يودعهم، وغادر منزل سونة دون أن يلمحه أحد.

(٧)

كانت بؤجته المنتفخة مملوءة بالكثير من الأحلام، حملها بحب و سار ساعاتٌ كطيف وسط الحوارى المظلمة، سار دون توقف كأن هاتفاً يناديه.

مر على السلخانة، وتحسس جدارها المدمى بأسى، وغوط فى تربتها المخضبة بدماء الحيوانات والبشر، ولامس العظام المركونة بالأركان، وخرج من بواباتها وراء أحد الغربان الذى غرد فوقه مفتوناً بأجنحته السوداء.

توقف الغراب فى السماء ليعاين حيران سواده الفاتح عن سواد الليل، وأنزل بؤجته ورفع جلبابه وأفرغ بوله فى العراء، ثم حمل بؤجته فوق ظهره مرة أخرى، ومشى وراء الغراب الذى ترجل أمامه وبجوار بئر الكسح توقف ليحط حيران رحاله.

التمت الحشرات والعقارب على بؤجته، وتحسست أصابع قدميه الحافيتين، فتجاهلهم ونظر إلى داخل البئر وشاهد روح الرجل الذى كان يصرخ ويقول :أنا سونة العاهرة.

كان طيفه يضحك، ويدندن بألحان عذبة، كان حراً طليقاً ولم يكن يحمل أحقادًا أو غل، حتى عيونه ظهرت مبتهجة مسالمة خالية من الذل والقهرة التى عاينهما بنفسه ذات يوم، غرد طيف الرجل وعانقه كأنه يمده بسكون الأرض ودفء المياه، وودعه حيران ليستكمل رحلته.

ظل عشرة أيام بلياليها يزور معالم الكرخانة فى الليل، وفى النهار ينام تحت عربيات الكسح المخروبة والمركونة منذ زمان فى هذا المكان المهجور.

أثناء نومه فى الليلة الأخيرة شعر بأصوات الحشرات تلاغيه كأنهم يرشدونه إلى مكان آخر خال من الوسخ، فقام وتجول فى المخزن، وعاين نبض الزهور والنباتات التى تحاول رغم الرائحة الميتة نشر أريج الحياة.

وتفاجأ بنفسه يحمل بؤجته، ويلامس أوراق النباتات، ويخرج من المخزن، ويعود إلى المكان الذى تعرفه أقدامه، المكان الذى نشأ وتربى بين جنباته.

داست أقدامه على الأرض المشبعة بالعطن، وشعر بنفسه خفيفاً فاستكمل سيره وسط الظلام حتى وصل إلى التكية التى تتوسط الخرابة.

وداخل جدرانها المهدمة وضع بؤجته على الأرض، ومدد جسده معايناً الأنقاض وأكوام الدبش متذكراً حلمه بجنة خياله الخالية من الأذى والذل.

(٨)

اندهش حيران لوجود زير المياه بين الأنقاض كما هو، لعل مجنزرات المفتى نسيته وهى تدهس حوائط التكية، أوربما حلت بركات القطب عليه ليظل بمائه ليشرب كل عابر سبيل من قاعه.

ملأ كفيه وشرب وارتوى عن آخره، واهتزت ألوان أوراق الحلبة والنعناع من تحته، وسمع أصوات العصافير، وحطت بعض اليمامات والهداهد على كتفه وأقدامه.

ظهرت الشمس وسطعت، ورغم صهدها لكن سحابة بيضاء جرت مسرعة فى السماء وظللت التكية، وهرولت الريح فوق النهر القريب لتعبئ الهواء وتسرع مخترقة أرض الخرابة لتبلل نسماتها جفاف قلبه.

نظر حوله بامتنان، ولأول مرة يشعر أنه فى مكانه المنتظر، ولأول مرة تذرف دموعه بغزارة دون سبب، ولأول مرة يشعر بالمحبة تحيطه والطيور والنباتات والسحالى يتراقصون حوله.

لم يكن يدرى رغم الأنقاض ما هذا السحر الذى يملأ الخرابة، فنام ناسياً وجوه الشمحطجية والمقاطيع والعس والبلطجية الذين كانوا يطاردونه، ويهينونه كلما رأوا وجهه.

نام غير مدرك سبب ولادته أو ميلاده، كل ما يعرفه أنه يستمتع بنفسه الداخل والطالع، ويحلم بمكان معصوم من الأذى، نام وغط فى أحلامه لتأتى الجنية وتحمله إلى مملكتها الجديدة.

وهناك فى قصرها المخفى عن الزمار وحراسه، طيبت جروحه، وبلغته مغتبطة بهروبها من زريبة الزمار المحاصرة بكلابه المتوحشة، وأجلسته وسط وصيفاتها لينشدن للكائن المحب الواصل بأعماقه إلى مكان جنتها.

وحضر حفلته كل من عاشرهم، الكلب والجمل والمعزة وابنه والعاجزة وامرأته والحيوانات والأسماك والحشرات والطيور وكل الكائنات التى عاينت رحلة حياته، ورأى حيران الجبال الشاهقة والنجوم وزبد البحر والريح يحيطونه بمودة، وينحنون تحت أقدامه احتفالاً بوصوله.

كان يغط فى النوم ووجهه مملوء بالصفاء، وقلبه الطائر يتراقص فى فردوس الجنيه وعلى شواطئ أنهارها، ويطير وسط أسراب اليمام فرحاً بعودته إلى مكانه الذى لم يعرف خلال رحلة حياته غيره.

(٩)

حينما تيقظ تفاجأ بوجود معظم الكرخانيين بجواره، كأن هناك نداهة جذبتهم إلى الخرابة، انطلقوا كالفرسان حوله ينظفون التكية، ويرفعون أكوام الدبش فوق عربات الكارو.

تبارت بائعات الخضر اللائى لففن على أنوفهن وأفواههن قماشًا أبيض ليرفعن غلقان الروث فوق عرباتهن المتهالكة، وقادت عزة بلسانها الرقيق وضحكتها الصافية عشرات النساء حاملات الطشوت لينشرن المياه فوق التربة ويسكن غبارها.

الجميع ترك أعماله ودخل الخرابة عارى الصدر كى يطهرها لتصلح كمأوى للرجل الذى تعاملوا معه فى الماضى كممسوس ومطارد.

لا يهم كل ذلك لأن الدعوة التى نشرها الطبال والحداد والنجار بتطهير الخرابة لاقت بعض المعارضة فى البداية نتيجة ولادة أجيال من الكرخانيين وسط هذه الرائحة، لكن شيئًا لا يعلمونه دفع أغلبهم إلى دعم الطبال، شيئًا مفاده كلماته الغريبة: نعم يمكن تحقيق أحلامنا، لن نخسر شيئًا إذا جربنا، فلنخط أول خطوة بأرض الحلم ونرى.

مع نهاية اليوم كانت الخرابة واحة نظيفة مرشوشة بالمياه، وكان الجالس فى التكية يمكنه أن يرى مياه النيل وهى تجرى ناحية الشمال لتغرق وتندمج فى المالح.

كانوا منهكين ومدهوشين من أنفسهم، ورغم ذلك لفوا حول وجهه المضيء محاولين اكتشاف سر القوة التى ملأتهم ودفعتهم لترك دكاكينهم وبيوتهم والسير وراء أحاسيسهم.

لم يكن يملك إجابة لأسئلتهم، ومع ذلك شعروا وهم يجلسون حوله بالراحة والسكينة، وانتظروا صوته ساعات طويلة حتى حل الليل، فقام من مكانه وتحرك وسطهم بوجهه المنير، وطلب منهم العودة لبيوتهم فلبوا طلبه صامتين.

عندما خرجوا من الخرابة ووجدوا مياه النهر تلمع أمامهم، تفتق ذهنهم جميعاً فى وقت واحد، وصرخوا فى وجوه بعضهم: سنزرع الخرابة.

جرى المئات منهم وعبروا النهر ودخلوا المشتل واشتروا الزهور، وعادوا بالمراكب ليدخلوا الخرابة مملوءين بالعزيمة ليحولوها خلال ساعات إلى حديقة بأشجار مورقة.

(١٠)

كان النهر يقسم الكرخانة إلى قسمين، يقبع فى قسمها البحرى قصر المفتى والجبخانة ودار الجباية وبيوت العسس والقضاة ومأوى البلطجية وعصابات الشمحطجية والمقاطيع.

كانت أماكن إقامتهم باهرة ومفروشة بأثاث فاخر، وشوارعهم واسعة ونظيفة ومزروعة بالورود وأشجار البرتقال، وتمتلئ

بالبارات والمطاعم الفخمة المشهورة بالبنات الفاتنات اللائي بمجرد دخولك تتفاجأ بإحداهن تدعك بين وركيك، وتفتح زجاجات وتصب فى كوبيات وتروى عطشك، ويمكنك إذا كنت تملك الدفع أن تسحبها خلف إحدي الستائر، وتدقها بكل رقة، وتعود إلى ترابيزتك كأن هتك اللحم شيء طبيعى فى هذه الأماكن.

وعلى الجانب القبلى يعيش الكرخانيون وسط المدابغ والورش، وتتوسط منازلهم المهدمة أرض البقعة التى تعد سوقا يتبادلون فيه الخضر والبضائع ولوازم الحياة، وتحيط هذه الكتلة المكتظة بكل أنواع البشر والحيوانات السلخانة والخرابة والخرارة وبير الكسح والعربخانة وأكوام وأكوام من القمامة والروث والدبش الذى لا أول له ولا آخر.

وداخل حواريهم تقبع عصارات وطوابين ومطاحن، وتمتلئ نواصيها بالهاجعين وتجار الكيف وبائعات الهوى اللائي يحددن أسعارًا غير قابلة للنقاش للحس والمص والدعك والنط حسب ثقل جيبك.

ومنذ نشأة الكرخانة كان الشيخ والقس هما همزة الوصل والدليل الوحيد على المصير المشترك لجانبي الكرخانة، يذهبان كالحمير إلى قصر المفتى ليركبهما، ويبوسا أقدام رئيس العسس، ويتحملا سبه ويديه الطويلتين وقدمه التى يمكن أن تفشخ مؤخرة أى واحد فيهما.

ويخرجان بعد تقديم التقارير وإبداء النصح وتلقى تعليمات قاضى القضاة ليعودا كالثعالب إلى بيوتهما المميزة عن بيوت

الكرخانيين بمداخلها الواسعة وميكروفاتها المزعجة وأعمدتها المرتفعة عن باقي البيوت.

لكن الكرخانيين الذين يعيشون في جانبها القبلي، والذين آمنوا بنبوءة حيران وصدقوا إمكانية تحقيق أحلامهم، عادوا إلى البقعة بعد زرع الخرابة ولم يناموا، ظلوا مستيقظين غير شاعرين بالنوم أو التعب، وقسموا أنفسهم إلى فرق متعددة مصرين على تطهير حياتهم من الروائح العفنة.

فرقة النجار ستقوم بتطهير بركة السلخانة من بقايا الدم والعظام وتزرعها بأشجار التوت والنبق، فرقة الحداد ستطهر منطقة بير الكحح من أكوام الوسخ وتزرعها بأشجار الجوافة والتين، فرقة الطبال وهي أكبر فرقة وقوامها أكثر من خمسة آلاف من الرجال والنساء ستطهر الخرارة المملوءة ببرك الصنان والجيف وتزرعها بالزهور.

هل يمكن حدوث ذلك، نعم تمكن الكرخانيون من تطهير مزابلهم وقمامتهم، وجلبوا الأشجار والزهور من المشاتل القابعة في الجانب البحري، وعبرت مراكبهم النهر محملة بالأحلام وسط زغاريد النساء وتراقص الرجال.

ثلاثه أيام فقط وكان المفتي وعمه وشمحطجيته ومقاطيعه في أجازة العيد، وعادوا في أول يوم عمل رسمي، ولم يعرفوا الكرخانة المكتوب على مدخلها: هنا مدينة الأحلام.

(١١)

نـزل المفتـى بنفـــه راكبـاً جـواده وسـط سـيارات ضخمـة تلـف وتـدور وسـط الخـرارات المزروعـة بالزهـور غـير مصـدق تطهـير مزابـل الكرخانـة مـن الـروث.

عـاد آخـر النهـار صامتـاً كأن قلبـه المتحجـر شـعر بـروح الجـمال، أحاطـه رئيـس العســس وقـاضى القضــاة وكبار مستشـاريه مؤكدين ماجـاء بتقاريـر أتباعهـم: نعـم صـدق الكرخانيـون تخاريـف مجـذوب بأنـه يمكـن تحقيـق أحلامهـم، وشرعـوا دون نـوم فى إزالـة أكـوام الوسـخ.

نهايـة الاجتـماع قـال المفتـى بتحـدٍّ: لـن نخسـر شـيئًا، لنجـرب نبـوءة هـذا المخـرف، ونخطـو داخـل أحلامنــا، ونـرى مـا يحـدث، وأعطـى أوامـره بالتـزام الجميـع بتطبيـق النبـوءة.

عـلى الفـور قـام رئيـس العسـس باسـتدعاء كل أتباعـه لتحقيـق حلمـه بمراقبـة نيـات الكرخانيـين، وعلـق فـوق أعـلى بـرج فى الكرخانـة البحريـة قمـرًا صـناعيـاً اسـتورده مـن بـلاد مجـاورة تمكنـت بفعـل عبقريتهـا مـن صعـود أهلهـا إلي الكواكـب وزراعتهـا بالخضـر والحبـوب، وإقامـة حيـاة متكاملـة فى منخفضاتهـا، وربطـت كل الكواكـب ببلدتهـا عـن طريـق محطـات إلكترونيـة، وبفعـل إنجازاتهـم يمكـن لأى مخلـوق أن يزور كواكـب الكون ويعود خلال أيـام إلى بيته.

انتـاب رئيـس العسـس الجنـون، واسـتبدل التقاريـر المكتوبـة بخـط اليـد والمؤرشـفة فى دواليـب لا حـصر لهـا باسـتمارات صممـت

ببراعة على أجهزة الكمبيوتر، وفتح لكل كرخانى ملفًا على أجهزته، وأعطاه رقمًا ليرصد تحركاته ونبضه ونيته خلال الليل والنهار وخلال الصحو والنوم.

كلما همس أى مخلوق ضد المفتى أو العسس أو قاضى القضاة حتى ولو بأحلامه يطلق الكمبيوتر صفارة الخطر، ويطبع ورقة صغيرة بمواصفات المهرطق وعنوانه، وعلى الفور ينتقل ملثمو الأجهزة ليقبضوا عليه ويلفوا القيود على رقبته، ويودعوه بالمستشفى الإلكترونى ليطهر العلماء أعماقه من الحقد، ويضعوا مكانه ودا واحترامًا لكل مسئول أوتابع للمفتى.

وخلال دقائق يخرج الكرخانى من غرفة العمليات متحولاً إلى شخص طوع ومسالم، ومتقبل القهر والمهانة بحب منقطع النظير.

وفى فترة وجيزة تمكنت الأجهزة من تحويل الكرخانيين إلى بشر مسالمين يعملون بجهد وكلل ودون شكاوى، ويأكلون برضا أى لقمة وينامون كالحمير شاكرين وجود المفتى فى الحياة.

ولأول مرة يستغنى رئيس العسس عن الشمحطجية والمقاطيع، فأجهزة الكمبيوتر تعاظم دورها وأصبحت برامجها كنزًا مسحورًا يهيمن بموجبه على عقول البشر ونياتهم ويعاد تأهيلهم كقطيع من الحمير، ورغم ذلك رفض قاضى القضاة الاستغناء عن بلطجيته، واعتبر وجودهم من وجوده، واضطر رئيس العسس أمام إصراره إلى تركهم كالخيل يرمحون فى أروقة المحكمة ويصرخون أمام القاضى ومساعديه كلما خرجوا أو دخلوا من البوابات: «حرس، وسع سكة».

وفى غضون أيام أصدر المفتى قراراً بترحيل الشمحطجية والمقاطيع إلى جبل الرخام ليستفيدوا من جهودهم فى التفجير والدق والتقطيع والتحميل، ومن يرفض منهم أو يعترض يقم العس بقتله، وإلقاء جثته فى الصحراء المتاخمة للكرخانة.

(١٢)

كانت زوجه المفتى ملدوغة تهيج فى أوقات لا يمكن لأحد تخمينها، وبمجرد شعورها بالحرقان بين فخديها ينفتح فرجها ويغلق بشكل لا إرادى.

تتحرك كالمجنونة وسط القصر وفى الحديقة، وتقذف بأى شىء فى يديها تجاه زجاج الشرفات، وتجرى وسط الشوارع تبحث عن أى رجل يضع قضيبه فى فرجها لتستريح.

كان حلم ملدوغة أن تتحول إلى امرأة رقيقة مثل كل النساء، تمارس الجنس بحب مع خليل تحترم دوره وتقدر وجوده، وليس بدافع إطفاء نار فرجها المشتعل.

لم تفاتح المفتى فى حلمها الذى راودها، لكنها وعبر مستشاريه أوصلت رسالتها: سألتزم بتنفيذ تعليماتك وأطبق النبوءة.

قررت الخطو بتأنٍّ داخل حلمها، وحتى لا تكشفها أجهزة العس فصلت قنوات التواصل، وقطعت الكهرباء، وغيرت كلمة السر التى تعرفها لصفحتها، ثم أعادت كل شىء داخل

ملفها لأصله، وخرجت من القصر بعد تلطيخ وجهها بمسحوق السمار، وارتداء ملابس مغايرة لملابسها، ملابس تناسب امرأة سمتها هادية، والتى حلمت برقة مشاعرها، وتواصل عطائها، وعشقها اللامتناهى.

نعم حلمت لهادية بأحاسيس فياضة براحة البال والتدفق، والنوم فى براح الكون، أحاسيس ومشاعر مجهولة وغريبة عن تاريخها، ولا يمكن لأجهزة العسس أن تتعرف عليها أو تعرف مكنونها.

عبرت النهر عبر الثغرة التى تعرفها والتى كانت تهرب منها لتعاين حياة الكرخانيين الغريبة فى البر القبلى، وسارت فى الشوارع كمجذوبة، وتخطت الخرابة المزروعة بأجمل الزهور ودخلت البقعة.

وأمام بيت سونة شعرت بحنين يطالبها بالتوقف لرى جفاف قلبها، نعم هنا يوجد حلمها، هنا بيت المشاعر الفياضة بالحب، كيف وبيت سونة هو بيت الداعرات، هل ترغب هادية فى الدعارة،لايمكن لأن حياتها الماضية كانت مملوءة بقضبان كل الرجال الأوباشي.

وأثناء تسمرها شاهدت وجه ذي العيون الباكية، اقتربت منه واقترب منها، ودون شعورها بأمطار السماء التى هطلت فوق الكرخانة ارتمت فى أحضانه.

انجذب إليها كأن بعيونها سر وجوده، وألهمت قلبه كتيار كهربائى ليخفى مشاعره فى بئر أعماقه، ويعتبرها أخته التى جاءت لزيارته والتى عاشت عزباء فى بلدة قريبة.

وتمكن الطبال في نفس الليلة وبدعم سونة من أخذ حجرة مخفية عن العيون ليبيت معها كعاشق، وفى النهار تخرج وتعمل فى الخفاء مع باتعة الخضرية كغريبة وافدة إلى أرض الكرخانيين.

وانطلقت ملدوغة في حياتها الجديدة داخل البقعة تبيع وتشترى وتفاصل وتزن الخضر والفاكهة، وتترنح من السعادة كأنها جنية خرجت للتو من أسوار ماضيها إلى موطن أحلامها.

(١٣)

كل شيء تحت السيطرة، ويمكن تغيير الأحلام، وتحويل الكرخانيين إلى دمى تسبِّح بحمدك، وتتمنى رضاك: هكذا قال رئيس العسس فى اجتماعه مع المفتى وكبار مستشاريه، الجميع وافق فى النهاية على خطة تقسيم الكرخانة وخيرها بنسب متساوية، باستثناء حصة المفتى التى تقدر وحدها بخمسين بالمائة.

وتساءل رئيس العسس: كيف يمكن ذلك وبعض الأهالى يملكون أوراقًا ومستندات تفيد ملكيتهم الموثقة بمكاتبنا، فضحك قاضي القضاة قائلاً: الورق ورقنا والدفاتر دفاترنا، ولا تنس أننى بدأت مثلك فى الخطو داخل حلمى لبناء توثيق مغاير يعود تاريخه لآلاف السنين، ويعطينا الحق فى تملك الكرخانة والكرخانيين مدى الحياة.

وكعادته نسى المفتى أن يسأل رئيس العسس عن زوجته، لأنه يعرف هيجانها المتواصل، ولعله تحرج من النطق باسمها

أمام مستشاريه الذين اضطروا لمعاقرتها ذات يوم خوفاً من ضياع مناصبهم.

نسى المفتى وبطانته المرأة الهائجة، ولم يعرفوا أنها الوحيدة الناجية من هيمنة الأجهزة وخداعها والتى تمكنت بصبر الجمال ولوع السنين من حماية مشاعر الطبال ودفعته لبناء خزانة ضخمة بأعماقه، وإخفاء كنز أحلامه بداخلها.

وساعدته لتقديم مشاعر مزيفة لأجهزة المفتى بتطبيله طوال الليل والنهار على طبلته وسط البقعة وبمنزل سونة لإظهار سعادة الكرخانيين بأفضال المفتى وعسسه على يومياتهم التعيسة.

الشىء الغامض الذى لم يعرفه أحد حتى الآن أن رئيس العسس لم ينس قط ملدوغة، لكنه كان مشغولاً بشىء يمكن أن يدمر نظامه الجديد، شئ مكتوم اسمه فشل أجهزته وعجزها فى السيطرة على أحلام ومشاعر حيران.

أمل بالنجاح فى فهم مشاعر المجذوب ليفجرها بمؤتمر ضخم يعلن فيه هيمنته على أحلام التائهين، لذلك قام وعبر خبرائه بتغيير استمارته مئات المرات واستعان بكبار علماء بلدة العلم التى اخترقت الأكوان، وسيطرت على حركتها ليضعوا مؤشرات وبوصلات يمكنها التقاط مشاعر حيران واستنباط أي إشارة ترشدهم إلى مخزن أعماقه، لكن محاولاتهم كلها باءت بالفشل.

كان يمكن لرئيس العسس أن يقتله ويرتاح، لكن العلماء أوصوا بعدم ارتكاب تلك الحماقة لتطوير معارفهم وعلومهم،

ووضعوا مشاعره تحت الملاحظة الدائمة باعتباره حقل تجارب وكنزًا معرفيًّا.

وشيء آخر دفع رئيس العس إلى عدم قتله هو شعوره المخزى بالهزيمة، إذ كيف يمكن لمجذوب مقاومة جبروت أجهزته وتضليلها، لذا يجب انتظار النتائج والوثوق بالعلم لضمان السيطرة على إلهامه، وتغيير مشاعره مثله مثل باقى الكرخانيين.

وأمام هذا التحدى كان رئيس العس يراقب بنفسه يوميات حيران الذى يصحو فى التكية كل صباح ويحدث العصافير فتبادله الغناء وينزل النهر ليستحم،ويداعب الأسماك، ويخرج عارياً ليلاغى النباتات والحشرات بأسرار وجمل يجعلها تتراقص وتضحك، وتنطلق مزهوة بوجودها فى الحياة.

(١٤)

نسى حيران تجاهل الكرخانيين لوجوده واستغناءهم عن أحلامهم واندماجهم فى صراعاتهم، وتغافل عن أحزانهم ووجوههم المتألمة وتفاعل مع عالم الخرابة.

كان يجلس بالساعات إلى جوار النعناع يحاول فهم أسرار نموه،من أين يأتى بعطره الذى يمتص رائحة العفونة، ويتفاعل معها لينتج عبيرًا فاتنًا يدفع من يشمه للدخول إلى عتبة أحلامه ونسيانه الألم.

يدخل فى عروق زهور البرتقال، ويشعر برحيق ألوانها مبهوراً من إصرار الجذوع على دعم زهرتها لتحويلها إلى ثمرة يانعة.

يرتمى فى النهر، ويمسك البلطية بين يديه، ويتحسس ذيلها وخياشيمها وشوكتها لتمده بسر قدرتها فى العيش تحت المياه، وخبايا موتها حال خروجها على اليابسة.

يسمع إحدى السمكات تقول للمياه: لا تتفاخرى وتقولى أنا أصل الوجود، لأنه بدونى وبدون عائلتى كنت ستصبحين بركة عطنة لقاذورات الكائنات.

يزحف حيران خلف النمل ويدخل بيوتهم بإحساسه، ويشعر بحبهم وتفانيهم فى العمل للقيام بدورهم من أجل مواصلة الحياة.

يحاوى الثعابين السامة ليعرف سر لدغته المميتة، نعم بكت الحية على كفه وغرغرت عينها وهى تلقنه خفايا دفاعها عن أولادها، والقيام بدورها فى اصطياد الطيور وأكل الميتة لتنظيف الأرض من الجيف وإعادة التوازن للطبيعة.

ظل حيران أياماً طويلة يحدث الكائنات ويتوحد مع عوالمهم، حتى تراب الخرابة وأخشابها ودبشها وصفيحها حدثهم وفهم أسرار قبولهم لدورهم الذى يقومون به أثناء رحلة حياتهم.

كل كائن له لغة يعبر بها عن دوره المكمل لأدوار باقى الكائنات، لغة يحولها حيران بداخله إلى حروف، ويحاول تلقين نفسه لهجتها، وخلطها بأعماقه ليفهم سر وجودهم ورحلة نموهم .

نهاية تواصله مع أي كائن ينطق كلاماً وجملاً غير مفهومة، فتلتقطها الأجهزة وتحاول فك شفرتها فتفشل، وتندهش من صمت ورقة كائنات الخرابة التي تفهم همهمته وتتمنى حلوله في مكوناتها.

كان حيران يتمتم دون سبب، ويشاهد نفسه يجري كالرهوان، ويتمرغ في طمي النهر ويغني للأسماك والضفادع، فيخرجون بأنوفهم ورءوسهم ليبادلوه التحية.

يجري وسط الزهور، ويخلع ملابسه، ويتدحرج على الأرض، ويمسك إحدى الخنافس بيديه ويهدهدها، ويلف حول نفسه كأنه يطير فتقترب العصافير من رأسه، وتبادله كلمات الأغنية التي وحدت كائنات الخرابة، وملأت أعماقهم بالفرح.

(١٥)

أثناء غنائه ورقصه وسط الكائنات بكلمات غريبة حوت لهجات متداخلة وأصواتًا حالمة، والتي لو سمعها أي بشرى سيتيقن من جنونه، تفاجأ بنفسه يصرخ كالمجنون، ويهذى ويكرر جملة غريبة حتى على أعماقه.

جملة حروفها من نقنقة الأسماك وخرير المياه وطنين الحشرات وتغريد العصافير وصفير الريح وهزيم الرعد وحفيف أوراق الشجر وسكون الجبال وبكاء الأطفال.

وشعر فجأة بتواصله مع قلوب الكرخانيين فى بيوتهم وورشهم، ورمق شعاعًا يخرج من جسده ويتواصل مع بريق عيونهم ويدخل عروقهم وينتشر بأعماقهم ويهزها وينفضها كأنه يرج سجادة مملوءة بالتراب.

وفى لمح البصر لقنهم حروف أغنيته التى فجرت مخزن مشاعرهم، وتفاعلت مع أحقادهم وخنوعهم وامتصته، ووضعت مكانه أريج زهرة العنبر التى تملأ أركان الخرابة، ودون وعى استعادوا قوتهم وقدرتهم على الحس والشعور.

وجروا فى لحظة واحدة إلى مدخل الخرابة المطل على النهر وعلقوا اللافتة التى حطمها الشمحطجية والعس ليعلنوا عودة إيمانهم باسترجاع أحلامهم المفقودة.

تيقظوا منبهرين من استعادة وعيهم شاعرين بأن مسًّا كهربائيًّا لامس قلوبهم، وشاهدوا أنفسهم يهرولون كالطوفان بأرجاء الكرخانة، ويتجمعون فى البقعة، ويتساءلون عن سبب كمونهم وتحملهم رائحة الجيف الميتة كل هذا الوقت.

الغريب أن المفتى وقاضى القضاة ورئيس العس شعروا مثلهم بهذا المس، فاندفعوا دون إرادتهم من مكاتبهم، وتوجهوا إلى القصر ليشاهدوا عن قرب تقارير أجهزة رصد المشاعر التى تفاجأوا بتعطلها.

ولم يكن هناك بد من اتخاذ القرار بعد إعلان علماء أجهزة تحليل المشاعر وإعادة التأهيل فشلهم فى فهم مشاعر حيران، بل الأدهى أن لغة مشاعره غير المفهومة هى التى دمرت ملفات برامجهم.

انطلقت سيارات العسس محملة ببلطجية قاضي القضاة وعبرت النهر ودخلت الخرابة، وتوقفت أمام باب التكية، ونزلوا كقطاع طرق أمام هالة حيران الجالس مبتسماً بجوار بؤجته المنتفخة كأنه ينتظر قدومهم.

ودون صوت أو حوار، وحسب التعليمات غمموا عينه، وكتفوا يديه وقدميه، وحملوه في صندوق إحدى السيارات، وأغلقوها بإحكام، وعادوا من الجسر إلى معمل الأجهزة المدفون بأحد سراديب قصر المفتي.

(١٦)

مرت أيام طويلة وقاسية على القصر، أيام لم ير فيها المفتي ورئيس العسس وقاضي القضاة النوم في انتظار استعادة أجهزتهم برامج الهيمنة، نسوا حيران المحبوس مع أعتى العلماء ليفسروا رموز أغنيته، وتمكنوا عبر توصيله بأشعة جديدة من عزله عن محيط الكرخانة، وإفقادوه التواصل مع كائنات الخرابة.

في تلك اللحظات كانت الشوارع تعج بالهائمين الذين عادوا من أسوار الهيمنة مفجوعين من غيابهم عن الوعي، جروا في الشوارع مضطربين، والتفوا حول الطبال الذي ذكرهم بكلماته القديمة: نعم يمكننا استعادة أحلامنا.

تحولــوا بــين ليلــة وضحاهــا إلى عصــاة جامحــين، وتســابقوا للوصــول إلى التكيــة باحثــين عــن سر شــعورهم برائحــة الزهــور، بحثــوا تحــت الســجادة وفــوق التعريشــة عــن حيران، ولفــوا الخرابــة كمجانــين، ومشــطوا هيــش الشــاطئ ولم يتوقعــوا غرقــه بالنهــر، كانوا متيقظــين ومتأهبــين للمــوت فقــرروا الانتظــار حتــى تأتيهــم البشــارة.

أثنــاء جلوســهم صامتــين دخــل الحــمارون الباقــون مــن مذبحــة العربخانــة راغبــين في القصــاص مــن الشــمحطجية الذيــن أغرقــوا الحمــير والحماريــن فى بطــن النهــر، وصرخــوا والدمــوع تســيل عــلى ملابســهم: نريــد إعــادة نــور عيــون وضحــكات أهالينــا.

هرولــت بائعــة بجوارهــم رافعــة يافطــة تطالــب بقطــع رقبــة برغــوت قاتــل زوجهــا، وحــارق قلبهــا والــذى لم يشــعر بآلامهــا وهو يقطــع لحمهــا ويدفقهــا وهــى مرميــة قتيلــة وســط أكــوام الوســخ.

صرخ الحــداد وســط الجمــع باكيــاً: ابنــى، أريــد معرفــة مــكان هيمــة، هــل مــات، هــل أكلــت النســور جســده، هــل تــم حرقــه، أحلــم بدفــن الباقــى مــن عظامــه فى لحــدى، أحلــم بتحقيــق حلــم زوجتــى التــى ماتــت مســحورة، وتمنــت جلوســها أمــام مدفنــه والتعديــد عــلى حياتنــا الضائعــة.

تبــارى النحــاس والقهوجــى وكل الحرفيــين رافعــين لافتــات تطالــب بالقصــاص مــن المفتــى ورجالــه الذيــن سرقــوا حياتهــم، وأوقفــوا نبــض قلوبهــم وبلــدوا أحاسيســهم.

كان الطبــال يتحــدث وســطهم برقــة كجلــد طبلتــه، كان حليــماً رءوفــاً، ويــروى مشــاعرهم ويــداوى أحزانهــم بكلماتــه الملهمــة.

طوال حياته كانت تلك هى مهمته ومهنته، لكنه اليوم وبعد غياب حيران كان لابد من وجود أحد يستمد الكرخانيون من دوِّى صوته القوة لمواصلة الحياة.

ودون شعور بالحزن صرخ وسط الخرابة: كل طائفة تحدد اوجاعها بوضوح، وتختار واحداً منها يعبر عن أحلامها، وعليه تمثيل طائفته بمجلس الكرخانيين المنعقد ساعة ظهور الشمس.

(١٧)

انطلق النجار حاملاً الأحلام المحرمة فى أجولة الخياش، ودخل ورشة الوراقين وأفرغها فى باحتهم ليطبعوها ويسلموها للكناسين لينتهوا من توزيعها على البيوت والمقاهى قبل ظهور الشمس.

وتفاجأ بانتهاء النقاشين فى ورشتهم المجاورة من رسم وجوه زملائهم الذين ذبحهم المفتى إبان مذبحته الشهيرة لتجرؤهم على تصوير مشانقه وأسنانه الدامية على جدران بيوت الكرخانة.

انتشروا كالهزيع وعلقوا صورهم على مداخل الحوارى وبوابات السلخانة والخرارة والبقعة الشريفة، وتركهم النجار مذهولاً من ألوان الصور التى أظهرت وجوه المذبوحين كأحياء، وتوجه إلى الخرارة لمقابلة أهالى الدابغين بجوار السلخانة.

حين نادى بكلمة السر خرجت الدبّاغات وأطفالهن من خلف السلخانة رافعات أياديهن الغارقة فى الدماء فوق رءوسهن،

وانطلقن يعددن مقتل ذويهن فى مجزرة صرف وجبات الطعام.

بكين بحرة وشققن ملابسهن وغرزن بطونهن بخناجر حادة ورفعن التراب والدبش فوق رءوسهن، لأن نبوءة حيران لم تراع كيفية عودة ذويهن من الموت.

توقف النجار أمامهن صامتاً، إذ لم يكن بكنز أعماقه كلمات يواسى بها فجيعتهن، ولم يسعفه لسانه ليخفف كربهن، ومع ذلك نطق بعفوية: من يعرف، لعلهم يعودون، فلا حدود للنبوءة، شاركونا الليلة وستحقق بأنفسنا من عودتهم إلى الحياة.

ودعهن وتوجه نحو منطقة بير الكسح المملوءة بالأحناش والأبراص والحشرات السامة ليلتقى برفاقه الذين استقبلوه بمودة، وعرفه الخياش على ممثل النحاتين والآلتية، وجلسوا حول الخياش ليكشف لهم أسرار العسس وإخفاقات نظامهم، ويرشدهم عبر الخرائط على مخابئ الأسلحة وأماكن اختفاء قاضى القضاة والمفتى.

هالهم معرفته لأسماء قيادات الشمحطجية والمقاطيع وقال بيقين: بمجرد الخطو لاسترداد أحلامنا سيهربون من جبال الرخام، وينضمون إلى صفوفنا لأنهم كفروا من ذل المفتى، وباتوا نادمين على الأفعال الشريرة التى اقترفوها فى حقنا، لدرجة أنهم يحلمون بقبولهم ضمن صفوفنا ككرخانيين أوفياء.

أثناء تجمعهم شاهدوا عدة أشخاص يرتدون ملابس ممزقة، فقاموا متأهبين وأشهروا سكاكينهم فى وجوههم، وحينما علموا بأنهم رسل المجاذيب أبلغوهم باختيار أحدهم قبل ظهور

الشمس، والانطلاق معهم نحو الخرابة للحاق بالكرخانيين المتأهبين للموت من أجل استعادة الحياة.

(١٨)

أغلقت سونة بيت الدعارة، وسارت مع فتياتها خلف عزة التي شوه الشمحطجية فرجها ذات ليلة مقمرة.

رفعن عريضة طويلة مطالبات باسترداد كرامتهن من أعماق وذاكرة الشمحطجية والعس والبلطجية وكل الرجال الأوساخ.

الوحيدات اللائي اشتملت لائحتهن على بنود واضحة تكشف صلف الكرخانيين وقسوة قلوبهم، نعم كتبن بمشاعرهن الرقيقة: لا معاشرة إلا عن رضاء وحب، لا ذل ولا قهر ولا غصب أولا استلاب لمشاعرنا، نحتاج إلي العمل والعطاء والنوم آمنين بين أربعة جدران، نحتاج إلى راحة بال طويلة لننسى القهر والذل، ومعاناة الليالى الطويلة فى أحضانكم القذرة.

وانضمت أم الرسام الذى قتله المفتى بنفسه إليهن، ورفعت صورة ابنها أمام الجمع، وصرخت: يجب إعادة لوحاته بنفس ألوانها المبهجة، ونقشها على الجدران ومداخل البيوت.

حتى سيكة صاحب عربيات الكسح جرى كالمجذوب وسطهن، وصرخ ليقبلن توبته، ويقطعن لسانه ويديه اللتين قامتا بإيذائهن فى الزمن الضائع.

كان يرفع التراب فوق رأسه، ويمزق جسده بسكين طويل، ويتلوى في دمائه، ويتوسلهن أن يرحموه ويسامحوه ويقبلوه كعبد متفانٍ باقى حياته في تطهير بيتوهن من أوساخ الرجال.

ودون وعى جرى من وسطهن بسكينه، وتوجه إلى بيت المغنى المدفون في بير الكسح، واعترف أمام ابنه وزوجته بقيامه بفتح ماسورة عربة الكسح عليه حتى غرقت جثته في الخراء، وأعطى لابنه السكين وطالبه بتقطيع يديه ولسانه وأقدامه، كى لا يؤذى أى كرخانى مرة أخرى.

وكدوّى العاصفة قامت زوجة الرجل بالابتعاد عن هالتها المحطمة، ورفعت لافتة تطالب بإعادة عزف ألحان زوجها في كل الحانات والشوارع، وأطلقت من جهاز صغير بجوارها صوت موسيقاها لتخترق قلوب الكرخانيين وتمدهم بالعزيمة.

لكن اللحن دفع سيكة إلى العويل الصامت، وبدون شعور وضع سكينه داخل بطنه ليفرغ أوساخه، ويموت نظيفاً راضياً بالموت وسط الكرخانيات اللائى غفرن جرائمه المنقوشة داخل صدورهن.

(١٩)

وسط العاصفة التى اجتاحت البقعة والخرارة والسلخانة والعربخانة وجدران البيوت المهدمة، قام كرخانيون لم تتحدد

هويتهم بتغطية وجوههم حاملين سيوفهم، وتوجهوا إلى طابونة الشيخ.

داسوا بأقدامهم المشققة على سجاده المقدس، وجروه من لحيته وغزوه فى بطنه لينزف دمه الملوث، وطلبوا من فرانه تبليل سير العجانة بدمه كى يخرج خبزه غير مسموم بدماء أطفالهم ونسائهم الذين قتلهم دون رحمة.

كان الشيخ يبكى ويشعر مثلهم بالأسى من ماضيه، ويتمنى أن يغفروا له ويسامحوه، كانت آهاته تخرج من كنزه البعيد كعواء الذئاب، لكنهم لم يستجيبوا لتوسلاته، وربطوه فى حبل وسحبوه وهو يصرخ ويضع يديه على جرحه المفتوح.

ذهبوا إلى عصارة القس فلم يجدوه، فتوجهوا إلى بيته المغلق بالجنازير، وزجروا الحراس بسيوفهم، ودخلوا وسط البهو العالى المزين بالألوان الغامقة وصور الموتى، وقيدوا يد الشيخ فى رقبة القس، وسحبوهما وسط الشوارع عرايا كأنهما لصوص أحذية بيوت العبادة.

بكى فاقدو الهوية وصرخوا فى وجوههما ليعترفا بخداع الكرخانيين سنوات طويلة فى انتظار موائد السماء التى لم تأت أبداً، ويعترفا كالأنجاس بمساعدة المفتى والعس على سرقة أحلامهم وتحطيم آمالهم.

وأمام قسوتهم اضطر الشيخ والقس لإرشادهم إلى فروع بيت الجباية، ليسرقوا خزائنها ويحرقوا دفاترها التى تحصر فتات الكرخانيين وتدين ذمتهم المفلسة.

ساروا ساعات طويلة بجثثها الممزقة كأن فى تجريسها إشارة لاعتراف الكرخانيين بحقهم فى الوجود، أو كأن تفجير دمائها سيعيد هويتهم المفقودة.

وفى الطريق التحق بهم الحناكيش، وتوجهوا جميعا إلى الخرابة للحاق بالكرخانيين المنتظرين ساعة شروق الشمس ليعبروا الجسر إلى الجانب البحرى ويستردوا أحلامهم، ويحرروا خيالهم من الذل.

(٢٠)

بمجرد سطوع الشمس كانت الجحافل تحاول عبور ضفة الجسر غير عابئة بالرصاص المصوب إلى قلوبهم آملين في الانتصار على حماة القبح والقمامة.

ودارت معارك شرسة على جانبى الجسر بين كرخانيين يتمنون استعادة أحلامهم، وعسس مدربين لإيقاظهم من خيالهم وإعادتهم للدوران داخل دوائر حياتهم.

بطولات غير متوقعة لفتيان وفتيات خلبوا العقول بجسارتهم ودفعوا الكرخانيين للإيمان بصحة النبوءة والتقدم للشعور برائحة أحلامهم المفقودة.

لكن قذائف النار القاسية والمغلفة بالألوان الفاتحة لا تعرف الرحمة، وأمام توحشهم وتزايد قذائفهم لم يكن أمام الكرخانيين

إلا المقاومة والصمود حتى ولو اضطروا جميعاً إلى الموت من أجل الشعور برائحة أحلامهم المغتالة.

تفانوا وامتلأوا بعزيمة الكرخانيين الأوفياء، وتمكن الطبال بدعم ومشورة ملدوغة من عبوره فرقته النهر من ثغرة حديقة الرمان التي كانت ملدوغة تهرب من طاقتها وتتخطى الأسوار والحراس لزيارة خرابة الكرخانة والشعور بحلمها.

ونجحت فرقته في تجاوز اللجان ودوريات الحراسة، وتوجهت إلى بيت الجباية وكسرت أقفاله وملفاته واستولت على خزائنه واستكملت جموحها واخترقت أسوار بيت العسس، وأطلقت المساجين، واستولت على مخزن السلاح، وعادت إلى الكرخانيين الصامدين على شاطئ النهر لتسلحهم بالأمل.

وتمكنت فرقة الخياش بمساعدة ملدوغة من الدخول من نفس الثغرة وإطلاق سراح المقاطيع والشمحطجية الذين انضموا للكرخانيين الذين كلما مات واحد منهم التحق بدلاً عنه المئات، كأنهم يتوالدون من شعاع الشمس وصفير الريح.

وأضحى الشمحطجية مذهولين من موقعهم الجديد، واهتزت قلوبهم وتدفقت دماء غزيرة بعروقهم وهم يدخلون براح الحلم، ويقاتلون بجوار أشخاص كانوا يستعبدونهم في الماضي.

انطلقوا صارخين ومدهوشين من وجودهم في رقعة جديدة وغريبة على مشاعرهم، ولولا مشاعر الطبال الذي كان محتفظاً برقة الحلم وصفائه داخل كنز مشاعره كان مصيرهم كمصير سيكة صاحب عربة الكسح.

انتفض الطبال وسطهم وصرخ بجنون: نعم يمكنكم عبور جدران قلوبكم الصلدة، وتجاوز مآسى ماضيكم، والدخول إلى قلوبنا كإخوة، نعم يمكن تطهير أعماقكم من آثار جرائمكم، والقتال مثلنا لاسترداد أحلامكم المسروقة.

لحظتها توقفت الخناجر التى كانوا متأهبين لوضعها فى بطونهم، وانتفضت قلوبهم كأنها تزيح قوة السنين وحمولتها عن ظهورهم، ووجدوا أنفسهم يعبرون الجسر بجسارة وخفة حاملين السواطير والسيوف، وغير عابئين بطلقات الرصاص التى تمزق أجسادهم.

(٢١)

عندما تمكن العلماء من إصلاح برامج الهيمنة أطلقوا شعاع الخضوع وسيطروا على إرادة الكرخانيين، ومحوا ذكرياتهم وآمالهم وملأوها بمعلومات تعظم القبح وتمجد الانكسار، ودفنوا مشاعرهم فى ملفاتهم التى ظهرت على الشاشات كحرائق لغابات مهجورة وأنهار تضج من العطش.

وتفاجأ المفتى ورئيس العسس وقاضى القضاة بأماكن اختفائهم وعبر الشاشات التى تنقل المعركة بإلقاء الكرخانيين السلاح، والعودة مطئطئين رءوسهم إلى بيوتهم المهدمة جالدين ذواتهم، وملقين على أنفسهم أعباء وذنوب لا يقدر على حملها الجبال.

عند تلك اللحظة خرج أتباع المفتي من جحورهم واحتفلوا بالنصر، وطهروا الكرخانة البحرية من آثار معركة الأحلام، وفتحوا المقاهى والمطاعم المغلقة لتعاود عملها فى الرقص والتسيل.

وخلال أيام عاد الكرخانيين الاوفياء لحياتهم خانعين، وكأن لا أحلام راودتهم أو معارك خاضوها، وكأن لا رجال أو نساء ضحوا بأنفسهم من أجل الشعور بطيف أحلامهم فى أعماقهم المسلوبة.

كان مجرد الشعور بعودة الحلم كافيا للموت، لكن هذه القصص الآن مصيرها أكوام القمامة وبير الكسح وأرض الخرارة التى امتلأت عن آخرها بالوسخ ليتشر الذل والمهانة بأرجاء المدنية.

كان التحدى الجديد للعلماء الذين جلبوهم من كل بقاع الأرض ليس مراقبة الأحلام، وتطهير مشاعر الحالمين من بقايا الأمل، واستبداله بالخضوع، إنما التحدى الآن هو إبداع برنامج لقتلها فى مهدها.

وأعلن المفتى فى اجتماع إعادة التعمير رفضه للطريقة القديمة، التى كان بموجبها تتحسس أجهزته نبض الكرخانيين وتخترق أعماقهم دون شعورهم ليدخلوا شعاعهم الرقيق إلى قلوبهم ليتفاعل ويندمج مع روائحهم الكريهة، ويزيح أوهامهم برفق، ويستبدلها بحب العمل والطموح فى البقاء.

وصرخ منهيًا خطابه: نعم شركائي، لم تعد هذه الطريقة ناجعة لأن الخيالين اخترقونا، وأفسدوا نظام توازننا الرحيم والذي جعل الكواكب تدور بسلاسة وسلام في أماكنها منذ خلق البسيطة.

نعم المفتي قلبه طيب لأنه رفض في الماضي اقتراحاتنا بمهاجمتهم، وسحق أحلامهم قبل انتشار رائحتها، نعم عين الصواب الآن هو أبادة أحلامهم دون رحمة: هكذا قال قاضي القضاة.

وانبرى أكبر عالم أسطوانات في الكرخانة يعدل هندامه ويغمز بعينه قائلا: الكون يتطور والأجهزة تبدع وتهيمن، والصراعات تشتد بين الجوع وحد الكفاية، فكيف نسمح للرعاع بوقف قطارنا في محطات بالية، يجب تجاوز هذه الأوهام والانطلاق في عصر البشر.

واستكمل رئيس العسس: ليس لدينا وقت للنحنحة القديمة للمراقبة والتأهيل، ولا نملك موارد لهذه العملية الطويلة المعقدة، يجب تحمل الكرخانيين تكلفة نجاح خطة دفن المشاعر وتجميد القلوب، ولا يهم أن لا يشعر كل الجيل الحالي، المهم هو وجود الكرخانة على خريطة الحياة.

وفي صوت واحد قال الشيخ والقس الجديدان: قلب المفتي مليء بالرحمة لأنه يسمح للأوباش رغم تمردهم بالعمل مقابل الغذاء، والسير في الشوارع، والجلوس على المقاهي، ورؤية مياه النهر، وشعاع الشمس، والتنفس بحرية، وبانتهاء كلمتهم صفق الجميع وختموا على قانون وأد الأحلام وتحريمها.

(٢٢)

كانت قلوب الكرخانيين تغلى كالمراجل، وهرولت أسرابهم المحمولة على أقدامهم المتهالكة فى الشوارع والأسواق والورش مكبلة بقيود وشعاع برامج وأد الأحلام.

طوفان من الحزن والغبن والغل والصراخ يهرع ويندمج ويتفاعل وينتج عشرات التجاعيد فى وجوههم المليئة بالأسى والألم.

لا يهم الآن كل ذلك؛ لأن القانون أفسح لبرامج الأجهزة وحين تلتقط نية أى كرخانى فى الحلم إطلاق ملثميها حاملين أدواتهم ليفجعوا القلب الذى شعر، ويحملوه على خشبة مصلوبة، ويدقوا عظامه، وينفوا ذكرياته التى جعلته يحس بحنين، مجرد حنين إلى أحلامه كافٍ لتطبيق القانون كشرٍّ لابد منه وضريبة مفروضة على الاستمرار فى العيش.

لا يهم أن نية الحالم لا تتعرض للمفتى وبطانته، ولا تنتقد أى كرخانى شريف يعيش فى الجانب البحرى، لا يهم أن الحالم كان يرغب فى العلاج من العجز، أو ملء بطنه بأى لقمة، أو راحة جسده المتعب، أو رؤية شخص عزيز عليه، لأن مجرد الشعور حتى ولو بالألم هو تمرد على إرادة المفتى، وإعاقة خطة تدوير التروس.

ورغم سيطرة الأجهزة على مدارك الجميع، لكن الذين نجوا من معركة استعاده الأحلام ظلوا مختفين تحت أكوام الوسخ

فى الخرابة دون حركة، لدرجة أن تقارير العسس صنفتهم بأنهم جثث متجمدة لا فائدة من قتلهم أو إعادتهم للحياة.

وفجر يوم مطير قام المتجمدون بتحريك أصابعهم وأقدامهم، ومشوا فى صمت وراء الخياش دون الشعور بالخوف، ساروا كتوابيت ممتلئين بحنين لطعم الحلم أو رائحته، وعبروا الخرابة والخرارة، ووصلوا إلى شاطئ النهر قبل ظهور الشمس، ونظروا إلى السماء بحسرة، وواصلوا سيرهم اياماً طويلة دون نوم أو طعام حتى وصلوا إلى المالح، وهناك ألقوا بأنفسهم فوق مركب متهالك، وجدفوا بأيديهم وأقدامهم ليبتعدوا عن الشاطئ.

عندما وصلوا إلى منتصف المالح، وابتعدوا عن نطاق رادارات الأجهزة شعروا بأعماقهم تغلى، وتقيأوا من أنوفهم الاستكانة والذل، ونظروا مدهوشين من عودة الحنين داخل أعماقهم.

لحظتها لفحهم نسيم البحر، وسمعوا خرير أمواجه، وتغريد النوارس، واندهشوا من إحساسهم بشهقيهم وزفيرهم ورؤية وجوههم تضحك كالبشر.

لكن الأجهزة البحرية التى تمكنت من تحديد أماكنهم أحاطت مركبهم وصعدت إلى سطحه المتهالك، وبدلا من إنزالهم بسفن الأجهزة قام المتجمدون الشاعرين بهمس الحياة منذ برهة قليلة بإلقاء أنفسهم فى الغريق، مفضلين الموت على العودة لمدينة اغتيال الأحلام.

(٢٣)

على إثر الحوادث المتكررة بمحاولات الهروب أصدر المفتى توصية للاستفادة من خيال الكرخانيين، إذ لا يصح وآد الحلم بل يجب مصادرته وتحليل مضمونه للتحكم فى المستقبل المجهول.

وبالفعل طورت الأجهزة أداءها، وبعد شهور كانت الأحلام المصادرة مهولة، وقدرت بمئات الآلاف من الأحاسيس والأمنيات والمشاعر الفياضة.

أخفتها الأجهزة فى حجرات معقمة، وصممت لكل حلم صندوقا صغيرا، وأغلقته جيدا بكلمة سر ورقم متمايز، وحين تضخمت الأحلام نظفوها من الأسى والدموع، وبدأوا مرحلة التحليل.

واندهشوا من رائحتها المنعشة وألوانها التى خرجت كشعاع حر يتراقص ويغنى، وينطلق فى جنون محاولا الخروج من الصناديق للالتحام فى براح عوالم بعيدة لا توجد فيه أجهزة أو أسرار أو قيود.

عبأوها فى أسطوانات وفلاشات صغيرة أشبه بعقلة الأصبع، وبسرعة البرق أصدر المفتى قراره لترويجها فى أسواق دنيا العلم التى تحكمت فى مستقبل الأكوان مقابل تطوير أداء أجهزته.

وفى بورصة الأحلام التى شارك فيها ممثلون لكل البلاد حصل حلم سونة الداعرة على أعلى سعر، وتداول ممثلو المفتى الخبر

بشكل مؤسف؛ إذ كيف لحلم داعرة أن يحرز هذا الثمن الباهظ.

وجلب المفتى علماءه ليفسروا الظاهرة، وبالفعل كان شيئا مهينا أن تتمنى امرأة قتل كل الرجال العابثين بفرجها وجسدها، والرحيل إلى جزيرة لا تعيش فيها إلا نساء عذراوات لم تلمسهن أحاسيس رجل، ولم تشعر فروجهن بقذارتهم وأوساخهم.

كيف ذلك، وهل تتأفف الداعرات من رائحة الرجال: هكذا علق المفتى، وعلى الفور أصدر أوامره لتعالج أجهزته مشاعر فتيات بيت سونة من الخلل المهين، وتمكنت الأجهزة من إزالة اشمئزازهن من عرق الرجل ووضعوا فى قلوبهن بدلا منه الاشتياق واللهفة لقضبانهم المنتصبة وأجسادهم المزرنخة.

واستدعى المفتى سونة ليعاين بنفسه نجاعة العلاج، وقامت المرأة الخبيرة بكل ما يمكن أن تفعله هائجة من رقص وتسبيل ولحس ومص ودعك وتمكن من معاقرتها ساعات طويلة، لكنه لم يشعر بجبال حزنها المدفونة وأوجاع بدنها وهو يتلوى فوقها وتحتها، ويلقى بسمومه كالحية داخل فرجها المكروب.

(٢٤)

وبفعل تطوير برامجهم العبقرية تم إدخال كل كرخانى فى دائرة محددة القطر والمدى، وتحدد لنشاطه لنكات للعمل والنوم، ولنكات للحزن والتعديد لعدم بذله الجهد الكافى داخل دائرة الطموح.

وابتـدع علـماء الأجهـزة نظريـة التـوازن الحسـابى، والـذى كلـما زادت سـاعات عملـك، قلـت سـاعات نومـك، وقلت بالتـالى أوقات ألمـك وشـعورك، وتمكنـت الأجهـزة مـن مواجهـة أى ثغـرات تسـمح للكرخانيـين بشـم رائحـة خيالهـم، وقامـوا بسـحل الشـاعر بخيالـه، ومصـادرة إحـاسـه وتعليقـه عـلى مدخـل الكرخانـة كعنـوان عـلى هيمنتهـم، وإعـلاء لقوتهـم فى تطهـير ملفـات الكرخانيـين مـن أى فـيرس خبيـث مدمـر لمحتويـات يومياتهـم ولياليهـم المؤلمـة.

واخترعـوا مصفوفـة الأرقـام الرشـيدة، والتـى حولـت عامـة الكرخانيـين إلى أرقـام، وبفعـل التسـلط نسـى الجميـع أسـماءهم، وتفاخـروا بهويتهـم الجديـدة المدقوقـة خلـف رقابهـم وفى بطاقاتهـم.

كل شـىء الآن أصبـح لـه رقـم مميـز: الأشـخاص، السـيارات، أكـوام القمامـة، ولم يندهـش أحـد مـن رؤيـة اللافتـات الجديـدة: مطعـم خمسـة، طابونـة العشـرة، شـارع العشريـن، حـارة تلاتـة، زقـاق ثمانيـة، وتحولـت الحيـاة إلى أرقـام معـبرة عـن شـفافية العـصر الـذى لم يـترك خـرم إبـرة إلا و رقمهـا، وأحصاهـا فى التعـددات التـى تعـبر عـن عـصر الإنسـان المبـدع.

وفى الوقـت الـذى كان المفتـى يتفاخـر وسـط العـالم بإنجازاتـه وتفـوق أجهزتـه فى تنظيـم دوران الزمـن وضبـط أوقاتـه، كانـت عـزة تقـف فى شرفـة بيـت الدعـارة مخروسـة.

اسـترجعت يومهـا محاولـة فهـم سـبب بكَمهـا، وقالـت بصمـت لنفسـها: لم أتـوانَ طـوال النهـار، وحسـب سـاعة الزمـن قمـت بغسـل الملايـات والفـوط، ونشرهـا، ودعكـت الأطبـاق والحلـل

والأرضيـــات، ورشـشــت حجــرات البيــت وأثاثــه بالفنيــك، فلــمَ الخــرس يــا عــزة.

تفاجـأت بانســياب نقــاط ســوداء مــن فرجهــا، تلمســتها برهبــة وحاولــت معرفــه ســبب أو اســم هــذا الســيل المنهمــر، زغــدت نفســها كــى تفــوق وأمســكت منديــلاً، ومســحت جريانــه، وهــى مســتغربة مــن تواصــل نزولــه.

وأثنــاء ذهولهــا امتــلأت فتحــة الشــباك بالــدم المتســاقط مــن أنفهــا عــلى رءوس المــارة الذيــن لم يشــعروا بأقدامهــم تغــوط فى بــرك حمــراء، بــل إن بعضهــم صعــد إلى منــزل ســونة، ودخــل الصالــة التــى تقــف فيهــا عــزة مصلوبــة، ولســانها الأخــرس عاجــز عــن الترحيــب بدخولــه، ودون أن ينظــر إليهــا قــام بدفــع المعلــوم ليدخــل عــلى إحــدى البنــات ويدقهــا ســاعة واحــدة محســوبة بالدقيقــة، ويخــرج دون أن يحــس أن هنــاك فتــاة تمــوت عــلى الشرفــة مــن الألم.

(٢٥)

رغــم الصمــت المخــزى الــذى طــال حيــاة الكرخانيــين، لكــن البقعــة الشريفــة امتــلأت بالضجيــج والفصــال حــول نوعيــة الأكل الحامــض وفوائــده وأســعاره، وانفجــرت بأركانهــا حيــاة مشــبعة بالحرمــان ورائحــة الأحــلام المغتالــة.

حيـاه تركـت باسـتـسـلام وخنـوع برغـوت اللـص بعـد عفـو المفتـى يديـر أمورهـا، ويجـدد أسـعار لشـم ثـمار الـكاكا، ولحـوم الحمـير الفاسـدة، ونسـاء الفترينـات العاجـزة.

برغـوت اللـص الـذى تـدرج بفعـل خبراتـه وإجرامـه تأهـل ليذهـب كل ليلـة بعـد جمع الحصيلـة لرئيـس العسـس ليعطيـه نسـبته مـن الإيـراد، ثـم يذهـب منتشـيًا ليـدع حصـة المفتـى وقـاضى القضـاة فى خزانـة بيـت الجبايـة ويأخـذ حصتـه منتشـياً، ويتوجـه بعدهـا إلى بـار الكرخانـة البحـرى.

يجلـس ممـددًا عـلى كنبتـه الحريريـة مسـتمتعًا بتناسـق مؤخـرات الفتيـات اللائـى يخلعـن ملابسـهن الداخليـة بـتروٍّ، ويلقينهـا فى وجهه بغنـج يجعـل قضيبـه المرخـى ينتفـض كالميـت، فيقـوم مدهوشًـا مـن نهودهـن المشـدودة كالوتـر عـلى صدورهـن، ويشـد بنطالـه، ويطلـب زجاجـة خمـر متمنيـا زيـادة أرباحـه ليتمكـن من عـلاج عجـزه المزمن.

يبلـع مـع الزجاجـة شريـط برشـام لينـسى تاريخـه حالمًـا بمداعبـة فتـاة العـرض المفتونـة بليونـة مؤخرتهـا، والاختـلاء بعيونهـا النشـوانة خلـف السـتائر لتلحـس قضيبـه، إذ ربـما يشـعر برجولتـه المغتالـه، لكـن الحقيقـة أن برغـوت اللـص ليـس وحـده هـو مـن تأثـر بأشـعة البرنامـج، فالنجـار الـذى قـاد فرقـة كبـيرة أثنـاء معركـة اغتيـال الأحـلام، عـاد ليـمارس عادتـه فى صنـع الطبـالى وتوابيـت الموتـى وأسـرة النـكاح ومكاتـب التشريـح، وبـات يكسـب أمـوالا كثـيرة، لكنـه وذات مسـاء كئيـب بهـت مـن اختفـاء قضيبـه، وقـال لنفسـه فى صمـت: مـاذا جـرى لعضـوى الـذى كان كالمسـمار، أأحضـر داعرات بيـت سـونة ليشـهدن عـلي عـلى قوتـه وصلابتـه.

جلس متعوسًا بعد انتهاء عمله يعاين بحسرة تلاشى قضيبه داخل جلدته، ويا للغرابة فإن معظم الكرخانيين المحيطين بورشته أصابهم هذا الوباء، ورغم ذلك لم يشعروا بالعجز، بل تندروا على القضبان المنتصبة التى تشبه قرون الثور المخصى.

امتلأت وجوههم بالبشاشة وشكروا المفتى الذى أراحهم من النط والقذف بمخاط كريه يحتاج التطهر من لزوجته إلى غسله ثلاث مرات قبل النط وبعده، وانشرحوا لفقدانهم شهوة زائلة لا تعود عليهم إلا بالنجاسة وإضاعة الوقت والأموال.

لكن النجار وبمجرد ابتعادهم عن ورشته، خرج كالمجذوب وترنح مذهولًا صامتًا، وسار داخل الشوارع كميت، وتوقف وسط البقعة، ونظر إلى الباعة والمشترين المشغولين بالفصال، وشق ملابسه ولطم خدوده، وجرى فى الشوارع يهلوس.

حاول فتح شدقيه ليشعر بالبكاء أو الضحك، او ربما تشوق إلى إحساسه بالانتصاب، وحين فشل فى تحريك لسانه المختوم أو فكيه جرى ناحية إحدى البنايات العالية، وصعد سلالمها كالمجنون، وألقى بنفسه من فوقها.

ورغم تفتت عظامه وإغراق الأسفلت بالدم، لكن المارة ترجلوا فوق لحمه وواصلوا سيرهم بهلع ليلحقوا بقطار العودة قبل انطلاقه وتركهم على المحطة كبايا.

الغريبة أن الحداد فى اليوم التالى، أغلق ورشته بعد حصوله على رقمه المختوم على قفاه ورخصة حياته، والذى يعطيه الحق فى تناول وجبتين يوميًا، وزيارة بيت سونة مرةً واحدةً فى الشهر.

سار فى ضوء الشمس وسط البقعة والحرارة دون أن يلفت انتباه أحد، وهناك على شاطئ النهر نظر إلى موج المياه غارقًا فى حزنه، وترنح كتائهٍ حتى وصل إلى منتصف الجسر، وصعد السور الحديدى بتروٍّ، وقذف بجسده وسط الموج ليؤكد فشله فى التواؤم مع برامج عصر الإنسان الكامل والصاعدة بعقول البشر إلى محطات تتجاوز خيالهم.

(٢٦)

كان جسد حيران المكهرب على الدوام يتمدد داخل المعمل المخفى فى سراديب القصر، عزلته الأجهزة لتراقب ذبذبات مشاعره على شاشات منفصلة علها تفهم سر همهمته.

كلما بربشت عينه ظهرت على الشاشات صور لكلبة ترتدى تاجا على رأسها البشري، وتغطى جسدها بالحرير، وفارس مهلل يهرش كالجربان ومجذوم تائه كعراف.

وإذا نبض قلبه تراقصت على شاشاته صور لأحناش ونباتات ومياه وصخور لجبال ضخمة ملونة، وعوالم صافية لم تدنسها أفكار الإنسان.

وحينما وجدوا لسانه يتحرك وتحاول الحروف الجريان بداخله نغزوه بإشعاعاتهم التى سرت فى لحمه كومضات حارقة ليصدر صوت وغرغرة كأنه سيفارق الحياة.

ورغم براعة العلماء المبتكرة في منع تواصله مع الكرخانيين فإنهم أخفقوا في فك شفرات همهمته واعتقدوا بأنها السبب في وجود الثغرة التي تجعل بعض الكرخانيين يفدون بحياتهم حتى ولو متحرين.

وتفتق ذهنهم عن تقطيع أوصاله وفصلها عن بعضها؛ إذ ربما بتواصله غير المكتمل مع كائنات الخرابة أو بعض الكرخانيين ينتج أحاسيس مبدعة تكشف سر إصرارهم على مواصلة الحياة.

كانت أعضاؤه المفصولة عن بعضها تتعرض للإشعاعات المتنوعة ليتج كل عضو مشاعر مختلفة بلون مغاير، وانبثق عن عيونه المعزولة والموضوعة بقاع زجاجي معقم إشعاع بلون الصفاء الساكن المخلوط في الأبيض والأخضر والموحي بالرضا.

وأطلق العلماء على ألوان أعضائه المتنوعة أسماء علمية جديدة دلالة على اكتشافاتهم المذهلة في علم تشريح الإنسان وتقطيع أوصاله وعزلها وحيدة.

وحللت أجهزتهم واستنبطت بطرق مختبرة آلاف المرات علاقة ألوان مشاعره بأحلام الكرخانيين، ومع ذلك أصابهم الفشل في التعرف على سر استمرار حياة أعضائه وقدرتها على التواصل مع القلوب، وربما لأن أحاسيسه لا يمكن لأجهزة غير قادرة على الخيال أن تفهمها، أو ربما لأنه يرغب في توصيل رسالة للكرخانيين الذين استجابوا لبريق شعاعه الساحر.

والغريبة أن إشعاعات أعضاءه المفصولة أدت لظواهر غريبة، الأمر الذى أذهل العلماء من قدرة هذا المجذوب حتى وهو مقطع الأوصال على التأثير فى أحاسيس البشر.

(٢٧)

أحد الصباحات صحت ملدوغة بحجرتها عاجزة عن النطق والحركة، تساندت إلى الحائط حتى وقفت مصلوبة، ووجدت نفسها تعوى وتخلع ملابسها وتخرج للحارة عارية.

جرت بين البيوت المهدمة، وقفشت الهواء بيديها وحدثته بهمهمات وإشارات غامضة، وجلست هامدة على مؤخرتها كتمثال من الحجر، ورغم ذلك لم يشعر أحد من المارة بوجودها.

انجرفت دموعها، ومسحت الدم الأسود النازف من فرجها وقامت متوجسة، وبحثت بين أكوام القمامه عن شىء مجهول، وعاودت مواءها المكتوم، وجرت مفزوعة وسط المارة تنبح، ويسيل لعابها من بين أسنانها، وتعض كل من يقابلها كمسعورة.

ملدوغة الرقيقة يخفق عقلها فى توصيل رسائله لباقى جسدها فتقوم بأفعال مفصولة عن بعضها كأنها شخصيات عديدة تعيش داخل جسد واحد.

كيف حدث ذلك، ملدوغة زوجه المفتى الحالمة بقلب امرأة عاشقة يصل بها الحال إلى النباح على المارة وهى عارية، أليست

هى المرأة التى ضللت الأجهزة، وغيرت ملفها وكلمة سرها، وسمت نفسها هادية، فمن هى يا ترى التى تجلس الان وسط القمامة وتعض الهواء بأسنانها الحادة.

الغريبة أن الأجهزة التى عاينت وجهها المسمى بهادية غضت النظر عن جموحها ولم تشر فى تقريرها الى تشابه وجهها مع وجه زوجة المفتى الهاربة، أو ربما ملدوغة نفسها لا تعرف وهى تصرخ وتنبح وتجرى عارية وراء الكلاب أنها كانت سيدة القصر الأولى.

لكن ملدوغة أو هادية لم تكن الحالة الوحيدة لاختبار ارتباط الأعضاء المقطوعة لجيران بمشاعر الكرخانيين، فباتعة الخضرية التى كانت تقيس كل خطوة بحياتها تقوم الآن وسط البقعة بفعص خضارها بأقدامها، وتقذف بغلقان البصل والبطاطس أمام فرشتها.

ورغم تجاهل المشترين والبائعين لصراخ كل عضو من أعضاء جسدها، وانشغالهم بتعبئة خضارها المبعثر فى أكياسهم تقوم دون إرادتها مذعورة وتتمرغ على الأرض، وتمسك فكيها تحاول فصلهما عن بعضهما فيرتعش صدغاها كأنهما سيتفككان، وتقضم أصابعها بأسنانها.

ورغم ذهولها الواضح للأعمى لم يشعر أحد بانتفاض مؤخرتها المتواصل أو تقرحات خديها ورقبتها، فقامت مستاءة من دهونها المكومة فوق بطنها، والمهتزة كإربة مقطوعة، ومزقت ملابسها ولطخت مؤخرتها وفرجها بدمائها النازفة من يديها،

وجـرت وراء المشـترين كالبطـة وتحـاول زغزغـة تحـت آباطهـم.

وحـين يئسـت مـن شـعورهم الميـت بالإحسـاس، قفـزت كالنعجـة عـلى يديهـا وقدميهـا حتـى خرجـت مـن أرض البقعـة إلى مجهـول ربـما تعرفـه أعماقهـا الموصولـة بأعضـاء حـيران المفصولـة داخـل المعمـل.

(٢٨)

خـرج سـعدون الجزمجي مـن الجبـخانة عنـد نهايـة مـده حبسـه زاحفًـا عـلى يديـه ومؤخرتـه كـذوات الأربع، ولم يشـعر جيرانـه الذين ينامـون أمـام بيوتهـم هاربـين مـن النمـل والبراغيـت والبـق بغنائـه.

مـر مـن وسـطهم ينتظـر مبادلتهـم التحيـة، والترحيـب بخروجـه، لكـن الجميـع نظـر إليـه بـبرود كأنـه لم يقاتـل العسـس وحـده فى معركـة البقعـة الشريفـة.

عندمـا وصـل إلى منزلـه، وسـمع صـوت زوجتـه تـصرخ وتـألم دق عـلى البـاب لتفتـح، لكنهـا نظـرت مـن الشـباك، ولم تـمكـن مـن التحكـم فى أعصابهـا وألقـت بنفسـها عـلى جسـده المهلـوك تحـاول قضـم رقبتـه لتركهـا عشريـن سـنة دون رجـل تحتمـى بظلـه.

حـاول سـماع صوتهـا المكتـوم، لكنهـا نفـرت عـلى جسـده بمخاطهـا وهرشـت بـضرواة عـلى وركهـا المتقيـح، ودخلـت بيتهـا وأغلقـت بابهـا، وتركتـه وسـط جيرانـه كالضـائـع.

أشار للمهارة على قدميه المقطوعة بأصابعة التى كانت ترتق أحذيتهم كى يتذكروه، لكنهم نظروا إليه بذعر واستكملوا سيرهم كالقطار، محاولين الانتظام فى الخطوات كى لا يحيدوا عن طريقهم.

حين تأكد من نسيانهم دقة شاكوشه وورنيشه اللامع، تركهم واستكمل زحفه على مؤخرته حتى وصل إلى النهر، ونزل إلى المياه وطبش بيديه، واصطاد بعض الأسماك، وقرمشها بشوكها ليسد جوعه.

مسح بكلوة يديه دموعه المنهمرة، وعاد زاحفًا على مؤخرته إلى ورشته المغلقة، تحسس قدومه ومساميره وكرسيه الجلدى الغارق فى التراب، واتكأ على البنك الذى تحول إلى مخزن للحشرات، ونظر إلى جدران الحوائط المملوءة بالأحذيه المهترئة إذ ربما تتذكر ضحكته.

لكنه تفاجأ بدخول ممثلى الأجهزة، وبدون صوت ختموا على قفاه ولسانه برقمه، وصعدوا فوق مدخل المحل، وأزالوا يافطة:أحذية الوفاء، المخفية فى التراب، ووضعوا بدلا منها رقم هويته، وأخذوا مقاسات الأحذية والعدة وغادروا فى صمت.

بعد رحيلهم حاول معاودة نشاطه كأنه سعدون الجزمجى، لكنه اكتشف أن المحل لا يوجد به إلا أكوام الجلود المهترئة المملوءة بالقراد والسحالى، تحسس الختم الملصوق خلف رقبته فتقطعت أوصاله، وانقطع الاتصال بين عقله وباقى جسمه.

ورأى رغم يقظته عين حيران الذى أخرجه من السجن تتراقص على الجدران، عينًا ضاحكة مسالمة وفيَّة دون رأس أو رقبة لكنها تندفع أمامه كى يخرج من الورشة.

ودون إرادته وجد نفسه يتقافز على مؤخرته ويديه وسط الحارة، ويهاجم المارة محاولًا رفسهم، نظر إلى نفسه باندهاش وهو يعاين نهيقه المتواصل والجروح المندملة على مؤخرته كأنه طوال رحلته لم يعرف سوى جلد ظهره وأوراكه.

ظل ينهق طوال الليل وسط الشوارع حتى وجد نفسه وسط العشرات من فاقدى الهوية الذين بادلوه التحية بأصوات شبيهة بالمواء والخوار فبادلهم النهيق كأنه يتواصل معهم، أو يتفق معهم على شىء ربما لا يعرفه سواهم.

(٢٩)

تزايد المجاذيب وتكاثروا وأصبحت أصواتهم وحركاتهم وأجسادهم العارية دلالة على تحول الكرخانة إلى ملحمة بشرية مخيفة.

ورغم المخاوف المرفوعة للمفتى، والتى تنذر بتخطى الظاهرة حدود المسموح، فإن قاضى القضاة أكد أن هذه حيل كرخانية قديمة للهروب من الضريبة المفروضة على الاستمرار فى الحياة.

وبصوت الحكمة وبعد عرضه الشيق الذى صور مجاذيب الكرخانة وهم يتلظون وسط القمامة مفجوعين من عدم قدرتهم على تواصل أعضائهم، اقترح رئيس العسس التخلص منهم ودفنهم فى بير الخرارة أحياء.

لكن المفتى اقشعر بدنه وهو يرى صورة هادية الخضرية تعرى وتعض أحد الحمير كالذئبة، فقرر وانحيازًا لوجه نظر القاضى بإحالتهم للمحاكمة بتهمة الهروب من تحمل ثمن برنامج النجاة.

وخلال أيام امتلأت أروقة المحاكم والجبسخانة بعشرات الألاف الصادر ضدهم أحكام برفع أصواتهم وسط السوق عن حدود اللياقة، أو الإشارة بأوشة العيون فى غير مواقيت الراحة، أو لانحناء الظهور من ثقل الأحمال، أو تلويث الأكتاف أجولة التجار، أوالصلاة بدون ترخيص، أو البصاق جهرا ودون إذن، أو وضع مكياج أشبه بالخراء على الوجه، أو عض إحدى القطط المسالمة، أو دهس نملة صالحة، أو رفع الذراعين كأنهما أجنحة، والاف من التهم التى كشفت ضلوع الكرخانيين فى الإجرام.

ووثقت الأجهزة أدلة إداناتهم التى أعاقت عمل بيوت الجباية عن تجميع ضرائبها، وبرهنت تحرياتها عبر مصادرها السرية اشتراكهم فى تنظيم المتحايلين الهادف لتخريب النظام.

وحين امتلأت السجون بالمجاذيب عن آخرها اضطر العسس إلى تقيدهم من رقابهم وأقدامهم حتى لا ينهشوا القضبان، وأطعموهم وجبةً واحدةً، وتركوهم يتبولون قذاراتهم على

أنفسـهم؛ إذ ربـما يموتـون ويرتاحـون مـن خدمتهـم وحراسـتهم.

لكنهـم لم يموتـوا بـل تكاثـروا خـارج السـجن وداخلـه لدرجـة أعجـزت حبـسخانات الكرخانـة ومحاكمهـا عـن اسـتقبال المزيـد منهـم.

وأمـام نباحهـم المتواصـل، وروائحتهـم المقيتـة، وانتشـار أمـراض الجـرب، والسـعار، وانتفـاخ الكـرش، والشـلل الرعـاش، قـرر المفتى الاجتماع بمسـتشـاريه لبحـث الظاهـرة ووضـع حـدٍّ لانتشـارها.

اسـتمع الجميـع بإنصـات لملاحظـات عـالم العلـماء الـذى هـز رقبتـه ومسـح الريالـة عـن شـفتيه مؤكـداً بـأن كل هـؤلاء المجاذيـب يهرولـون بـكل أرجـاء الكرخانـة دون توقـف، لكنهـم لم يدخلـوا قـط الخرابـة، رغـم أنهـم يتوقفـون أمامهـا وينظـرون مـن بعيـد إلى أطلالهـا، ثـم يغـادرون مطلقـين همهـمات متنوعـة وغريبـة لم تتعـرف الأجهـزة حتـى الآن عـلى مكنونهـا.

واقـترح بحـص العـالم ببواطـن الأمـور إجبـار كل المجاذيـب إلى دخـول الخرابـة؛ إذ ربـما بأرغامهـم عـلى العيـش فى مـكان لايرغبـون في ولوجـه أن يسـتعيدوا هويتهـم الرقميـة.

وحـذر عـالم العلـماء للتعامـل بجديـة مـع الظاهـرة قبـل انتشـار العـدوى إلى العسـس الذيـن يحرسـونهم؛ إذ يمكـن عـن طريـق هؤلاء نقـل أمراضـهـم إلى الكرخانيـين الشرفـاء فى الجانـب البحـرى.

وأزاء المخاطـر التـى لا يمكـن لأحـد توقعهـا وافقـوا بالإجمـاع عـلى نقلهـم بأقـصى سرعـة إلى الخرابـة، وإحاطتهـا بجـدرانٍ عاليـة مدقـوق أعلاهـا زجـاج مدشـوش، وأمـر المفتـى بعزلهـم وقطـع

التواصل معهم حتى لا يفسدوا عمل برامجهم المتواصلة فى وأد الأحلام ومصادرتها.

(٣٠)

داخل أسوار الخرابة انمحت الفروق، ووقعت اشتباكات، وسالت دماء، وأُكلت عظام، وخلعت عيون، ونهشت جثث بقوة لم تحدث فى التاريخ، وتحول مأوى المجاذيب الذى جمع آلاف البشر بين جدرانه إلى نزيع لتجبر الإنسان على محو الشعور وقتل الإحساس.

ورغم تغطرس الأجهزة وزهوها بمعالجة ثغرات برامج الهيمنة ووأد الأحلام، فإن كرخانيا وكرخانية تمكّنا من الهروب من مجالات البرامج، وصمدا فى مواجهة الوباء، نعم تخفى الطبال فى نفس شخصيته ولم يغيرها، لكنه استطاع إخفاء كنز مشاعره بعيدًا عن رادارات الأجهزة، وظل يعربد كالمجنون وسط النهار موصلاً تطبيله كالقرداتى حتى يناديه العسس بالبهلول.

وقامت ملدوغة باستكمال دور هادية المجنونة التى تدور طوال النهار فى الشوارع عارية لتراقب الكرخانيين الذين تشوهت مشاعرهم وأحلامهم وفقدوا الأمل حتى فى الموت الرحيم.

وفى ليلة لم تنم فيها الكرخانة بسبب رائحة الدم والجيف المنبعثة من الخرابة التى تحوى بداخلها آلاف الموتى الأحياء،

دخـل الطبـال مـع ملدوغـة مـن ثغـرة حديقـة الرمـان إلى قـصر المفتـى، ومنهـا إلى الـراديـب التـى تخفـى معمـل الأجهـزة، وجمعـا أعضـاء حـيران المفصولـة مـن الصـاديـق المعقمـة، وأعادوهـا إلى هيكلـه العظمـى ليكتمـل جسـده ويعـود ككائـنٍ بـشرىٍّ.

تفاجـأ حـيران بانتفـاض أعضائـه وجريـان إحـاسـه، وشـعر بمجـرد عودتـه لوعيـه بتدفـق ميـاه النهـر، وتغريـد الطيـور، ورائحـه زهـور الخرابـة، وقبـل أن ينطـق لسـانه حمـلاه وخرجـا مـن القـصر الـذى تعـرف ملدوغـة كل مخابئـه وثغراتـه.

وصلـوا إلى الخرابـة دون شـعور الأجهـزة بوجودهـم، وقذفـوا بأنفـسهم فى غمضـة عـين مـن فـوق جدرانهـا غـير عابئـين بجروحهم المملـوءة بالزجـاج المدشـوش.

وبمجـرد وصـول حـيران إلى مكانـه الـذى تعرفـه مشـاعره عـاوده الحلـم بجنـة خيالـه، وشـاهد نفـسه كفتـاة تطـير وسـط السـماء، وتلمـس يديهـا أجسـاد المجاذيـب ليتفضـوا ويتواصلـوا ويشـعروا بملامـح وجههـا المـشرق المملـوء بالصفـاء.

ذاب المجاذيـب فى رقـة مشـاعره وهرولـوا داخـل طيـف أحلامـه ونامـوا دون صـوت ليراودهـم الإحسـاس بجنـة خيالهـم، وحـين تيقظـوا صرخـوا وبكـوا غـير مصدقـين حبـسهم داخـل أسـوار وجـدران الكرخانـة كمـرضى ومجاذيـب كل هـذا الوقـت.

كانـوا مفزوعـين لشـعورهم بالتدنـى والإهانـة، لكـن الطبـال وملدوغـة أحاطـا بهـم، ودخـلا قلوبهـم المفصولـة عـن رادارات الأجهـزة، وأزالا الأسـى والقهـرة مـن أعماقهـم، وقـال الطبـال وهـو

يمسح دموعهم: داخل قلوبنا كنز مملوء بالمشاعر، من يحسه يتخطى واقعه وينعتق من روائح الذل وألم القيود.

واستكملت ملدوغة: لا تقللوا من قدراتكم، فكل الأحياء يملكون قلوبًا مليئة بالعشق ويشعرون بالجمال، فقط ليس عليكم إلا معاودة الأمل فى استرجاع أحلامكم، وتجاوز هذه المحنة، وقتها ستحول أسوار الخرابة إلى سور ورقى واهٍ يمكنكم دهسه بنفخة هواء من أفواهكم.

سمعوا صوتها، وشعروا بطيرانها فوقهم تغنى وتعزف ألحان غريق البشر، فقام بعضهم وخلط التراب ببعض الأوراق الخضراء ورسم على الجدران وجوه الرسامين المغتالين.

استعادوا شعورهم، وانتفضوا يحاولون الخروج من الأسوار، لكن الطبال وملدوغة لاما جروحهم وجلسا وسطهم ليذكراهم بخطة الخياش والنجار والحداد وقادة معاركهم المغتالين.

انبهروا من قوة ذاكرتهم، وتيقنوا من صحة نبوءة حيران، وخلال أيام قام الطبال وملدوغة وبعض الناجين من مذبحة الأحلام بتطهير قلوبهم ومدها بالأمل لتفتح بصيرتهم، وتتذكر أحلامهم بكرخانة نظيفة خالية من الذل.

وفى الليلة الأخيرة جلسوا حول حيران كقلب واحد شاعرين بنفس شعوره، وناموا ليحلموا جميعًا نفس حلمه، كانوا

محبوسين داخل نفق مظلم ضيق رائحته كريهة، ويصرخون ويتدفقون فوق بعضهم كأنهم كتل من النيران ويضربون الحوائط والأسقف والأرضيات بأياديهم.

وفجأة انفتح غطاء النفق من كثرة ضغط أجسادهم، فانطلقوا خارجه ليتفاجأوا بأنفسهم يرمحون وسط أراضٍ بكر مملوءة زهورًا وأشجارًا، وترتفع فوقها شمس النهار، ومحاطة بأنهار عذبة وغابات مملوءة بالطيور، فقاموا بكل تصميم كروح واحدة متواصلة مع جنة خيالهم وهدموا سور الخرابة، وأطلقوا هدير مشاعرهم على الأجهزة ليدمروا برامجها، ويوقفوا نشاطها بفيرس الحلم المتجدد.

دخلوا البيوت والبقعة وبير الكسح والخرارة، ومدوا الكرخانيين المتبلّدين برائحة أحاسيسهم فانتفضوا وزالت غشاوة أعينهم، وشعروا بنور القمر وخرير المياه وعبير الزهور يتدفق حولهم.

تلمسوا بأعماقهم بريق أحلامهم الضائعة، فقاموا مهرولين بقلب كرخاني جسور وقّ حالمين بهدم جدران القصر والجبخانة والمحكمة.

فى تلك اللحظات كانت فرقة حراس البرامج تختفى فى أزياء نسائية وتدخل الخرابة وتجلس بجوار حيران يتمنون سماع صوته، ناوله أحدهم رغيف نابت مسموما ليأكله ويتمدد

بجوارهم كجذع شجرة، وهرولوا عائدين إلى مخبئ المفتى وعلمائه.

لكن الكرخانيين الذين تحولوا إلى كتلة واحدة من المشاعر تبغى الحياة، وقفوا على شاطئ النهر شغوفين برؤية بريق أحلامهم، وشعروا جميعا بصفاء جنة خيالهم الخالية من الأذى، فتدفقوا كالسيل وعبروا الجسر كالطيف وأحاطوا القصر وأطلقوا رصاصهم فى وجوه العسس والبلطجية، مرددين باندهاش كلمات الطبال وملدوغة: فكوا قيودكم، واهدموا الجدران، اسمعوا صوت الطيور واملأوا الحياة بالغفران.

غنوا أيامًا طويلة وهم يحاربون لإزالة جحيم المفتى من الوجود، وأثناء الحروب الضارية رسم النقاشون على جدران البيوت صور حيران وكل المقاتلين الحالمين وكتب أطفالهم ونساؤهم على مداخل الشوارع وأسوار البيوت المهدمة بدماء شهداء معركة الوفاء: نعم يمكن تحقيق أحلامنا.

انتهت

القاهرة ٢٠١٨

الكرخانة

كانت رؤية طويلة تؤرقه بأحلامه عن الكرخانة التي لا يعرف مكانها، وتلاحقه وتلتف من حوله فوق شراشفها، تعتبر هي غريبة عن واقعه وحياته، لكنه يشعر بأن شوارعها وحاراتها وأهلها جزء من تكوينه، لدرجة أنها ظهرت أمامه كلوحة ونادت عليه كامرأة قائلة: يا حيران، أنا الكرخانة ألا تذكرني، أنسيت من أطعمك ورباك، أنسيت الغلب والمجاذيب، ماذا حدث لك يا درويش، ألا تخجل من فشلك، وأي قيمة أو حياة تحاول عيشها بعيدًا عن رائحتي، إنني وأنا منبع أحلامك وسبب حياتك ومصدر أعماقك، فكيف تنساني يا مجروح، يمكنك العودة والاندماج برائحتي، وأنا خلاصك، ثقة يا مذبوح التطهر من رائحة الدم والخراب.

